أقدم النّصوص المسيحيّة

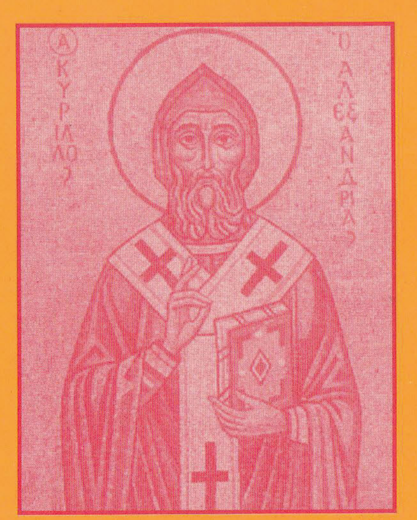
•

سِلْسِلَة النُّصوص الدّفاعيَّة

١

الرّدّ على يوليانُس

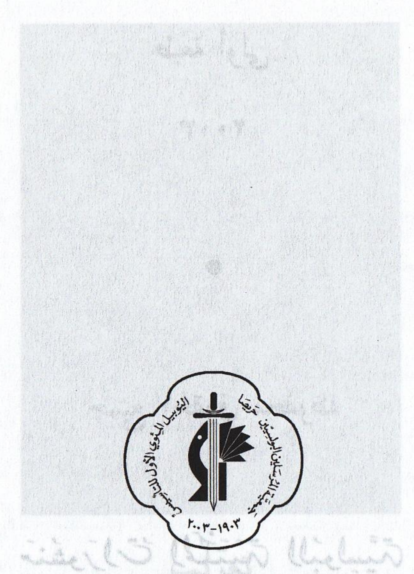
للقدّيس كيرلُّس الإسكندري



منشورات المكتبة البولسيّة

الرّدّ على يوليانُس

للقدّيس كيرلُّس الإسكندريّ



منشورات اليوبيل المئويّ الأوّل

لتأسيس الجمعيّة البولسيّة

طبعة أولى

٢٠٠٣

•

منشورات المكتبة البولسية
جونيه شارع القدّيس بولس - ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - الحمراء بلازا - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

أقدم النّصوص المسيحيّة

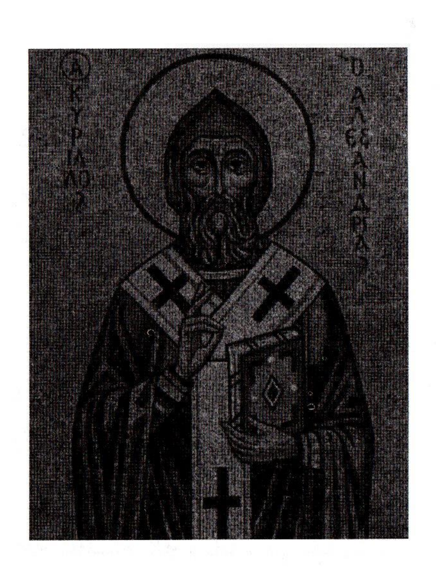
•

سِلْسِلَة النُّصوص الدّفاعيَّة

١

الرّدّ على يوليانُس

للقدّيس كيرلُّس الإسكندريّ



تعريب

الأب حنّا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسيّة

كيرلُّس الإسكندريّ (+ ٤٤٤)

كلمة اللّه الآب وُلد من عذراء دُعيت إلى أن تكون وسيطة فتلد بالجسد من كان متّحدًا بالجسد. عمانوئيل هو اللّه؛ والّتي وَلدت الإله الذي ظهر لأجلنا يجب أن تُدعى والدة الإله. (العظة الفصحيّة ١٧).

كان القدّيس كيرلُّس الإسكندريّ، في مطلع القرن الخامس ملفان التّجسّد. هذا عنوان مجد من كان، على حدّ تعبير نيومن، لاهوتيًّا أصيلاً.

أوّلاً: حياتُه

١. قبل الأسقفيّة

كيرلُّس الإسكندريّ ابن أُخت ثيوفيلس أسقف الإسكندريّة (+ ٤١٢) وُلد نحو ٣٨٠ ولم يصل إلينا شيء من أخبار حداثته سوى أنّه، على ما يبدو من أعماله، حصّلَ، إلى جانب خاله وعنايته، ثقافة كلاسيكيّة مدنيّة ودينيّة واسعة وعميقة، وحذقَ، إلى جانب اليونانيّة الأنيقة والمُعقّدة أحيانًا، اللّغة اللاّتينيّة.

كان كرسيّ الإسكندريّة يحتلّ المركز الأوّل في الشّرق المسيحيّ، ولكنّه أخذ في الانحدار شيئًا فشيئًا ولا سيّما بعدما رجحت كفّة القسطنطينيّة مع الذّهبيّ الفم، وبعدما عُقِد المجمع المسكونيّ سنة ٣٨١ في القسطنطينيّة، فثار ثائر ثيوفيلس، وكان رجلاً متسلّطًا جافي الخُلق، وكان في رأس النّاقمين على يوحنّا الذّهبيّ الفم، وفي سنة ٤٠٣ اصطحب ابن أخته كيرلُّس إلى مجمع السّنديانة للحكم على يوحنّا. وقد ورث كيرلُّس عن خاله بعض التّشدّد وبعض النّقمة على أسقف القسطنطينيّة.

٢. الأسقفيّة (٤١٢ – ٤٤٤)

المرحلة الأولى: (٤١٢ – ٤٢٨)

في ١٧ تشرين الأوّل ٤١٢ خَلَف كيرلُّس خاله ثيوفيلس على كرسيّ الإسكندريّة لمدّة اثنتين وثلاثين سنة. وقد أظهر منذ البدء غيرة راعويّة شديدة، كانت أعماله التّفسيريّة صدًى لها. وكان يبذل قصارى جهده للدّفاع عن الحقيقة: ناهض المجدّدين الهراطقة، وجلا اليهود عن الإسكندريّة، وقاوم الوثنيّين؛ واتّهمه البعض بشيء من المسؤوليّة في مقتل هيبّاتيا الفيلسوفة الأفلاطونيّة الشّهيرة التي أرْدَتها سنة ٤١٥ عصابة من المسيحيّين بقيادة شمّاس رسائليّ، ولكن لا شيء يثبت تلك المسؤوليّة.

يبدو أنّه ظلّ إلى سنة ٤٢٨ بعيدًا عن الأحداث الّتي كانت تُقلق العالم المسيحيّ وتجعله في شبه غليان، مُكبًّا على أعماله الرّاعويّة وعلى مطالعة الكتاب المقدّس وكتابات مُفسّريه، كما كان مكبًّا إلى جانب ذلك على التّفسير الكتابيّ وفقَ الطّريقة الإسكندريّة المجازيّة والرّمزيّة. ومن سنة ٤٢٣ تحوّل همّه عن مناوأة الآثار الوثنيّة واليهوديّة، والتّحصيل اللاّهوتيّ والرّوحيّ، إلى مهاجمة الأونوميّة، مشدّدًا على ألوهة المسيح، الكلمة المتجسّد، ومستلهمًا تعاليمَ أثناسيوس (+ ٣٧٣) الّذي كان يَعدُّه أستاذَه.

المرحلة الثّانية: مقارعة نسطوريوس (٤٢٨ – ٤٤٤)

في سنة ٤٢٨ أصبح نسطوريوس، بدعم من الإمبراطور ثيودوسيوس الثّاني، أسقفًا على كرسيّ القسطنطينيّة عاصمة الإمبراطوريّة، وكان نسطوريوس كاهنًا في أنطاكية اشتهر ببلاغته وروعة بيانه، فلفت إليه الأنظار، وكان تلميذًا لثيودورس المصّيصي الّذي كان همّه الأكبر أن يُشدّد

على النّاسوت الّذي اتّخذه المسيح ليخلّصنا. وقد انطلق نسطوريوس من هذا التّشديد لينشر في القسطنطينيّة آراء المدرسة الأنطاكيّة الجريئة في التّمييز ما بين الطّبيعة البشريّة في المسيح والطّبيعة الإلهيّة؛ فقد ولدت مريم إنسانًا ولذلك رفض نسطوريوس أن يدعوها والدة الإله (Θεοτόκος)، وفضّل أن تُدعى والدة المسيح (Χριστοτόκος).

نشب الخلافُ بين كيرلُّس ونسطوريوس، واحتدم الجدَل السّياسيّ – اللاّهوتيّ بين الإسكندريّة والقسطنطينيّة، وبين مدرستين متباعدتين في لفظيّة تفسيراتهما، هما مدرسة أنطاكية ومدرسة الإسكندريّة، وقد انتهى الخلاف مع نسطوريوس إلى الخروج على تعليم المدرستين في ما يتعلّق بطبيعتَي المسيح. وكان كيرلُّس المُدافع الأعظم عن الأرثوذكسيّة في صراعه اللاّهوتيّ مع نسطوريوس، وكان هدفه الأوّل إثبات كون مريم العذراء والدة الإله. قال:

هل يَخفى الهدفُ من هذا الجدل في موضوع الإيمان؟ إنّه صدَرَ عن اقتناعنا العميق بأنّ العذراء القدّيسة هي والدة الإله. (حوار في الثّالوث).

منذ سنة ٤٢٩ أخذ كيرلُّس في الاحتجاج على الكلام المُضلِّل الّذي كان يصدر عن كرسيّ القُسطنطينيّة، وتعالى صوتُه في عظته الفصحيّة، وإن لم يُسمِّ نسطوريوس فقد أشار إليه بوضوح، وأعلن قائلاً:

ليس الإنسان الذي وَلدَتْهُ مريم إنسانًا عاديًّا، إنّه ابن اللّه المتأنِّس، فهي إذن أمُّ الرّبّ ووالدة الإله. (العظة ١٧).

وبعد فترة وجيزة من الزّمن كتب كيرلُّس رسالة طويلة وجّهها إلى رهبان مصر جاء فيها:

هل ندعو مريم ثيوتوكس؟ لا شكّ في ذلك وقد حَبلت باللّه الكلمة المتأنّس

وولدته. هذا الاسم تقليديّ وردَ عند جميع الآباء الأرثوذكسيّين في الشّرق والغرب.

ثمّ توجّه كيرلُّس إلى نسطوريوس وكتب إليه رسالةً يندّد فيها بخروجه عن الخطّ الأرثوذكسيّ، ويدعوه إلى الحذر من الشّطط، وإلى التّراجع عن موقفه، فاستخفَّ نسطوريوس بكلامه، وتوجّه اللاّهوتيّان بتقريرهما إلى رومة يعرضان القضيّة؛ وفي سنة ٤٣٠ عقد شلستينُس الأوّل مجمعًا رومانيًّا ودان نسطوريوس، وكلّف كيرلُّس أن يبلّغه الحكم، وأن يبذل جهدَه في ردّه عن غيّه، وعن سلوك طريق الهرطقة، وأمهل المجمع نسطوريوس عشرة أيّام بعد تبلّغه الحكم لإعلان أرثوذكسيّته، وإلاّ أُسقط عن كُرسيّه وعُزل. فأنفذ كيرلُّس إليه الحكم مع اثني عشر حُرمًا. ولم يجد نسطوريوس بُدًّا من تجنّب الحرم إلاّ بالخضوع، فغاظ الأمر كنيسة أنطاكية، وكاد يصل بها إلى الانفصال؛ فدعا الإمبراطور ثيودوسيوس الثّاني إلى عقد مجمع عام في أفسس سنة ٤٣١؛ وفي هذا المجمع المسكونيّ الثّالث دين نسطوريوس ومسيحانيّته منذ الجلسة الأولى، وعندما وصل الوفد السُّوري (بعد خمسة أيّام) احتجّ عبثًا على الحكم:

كيرلُّس ابن أُخت ثيوفيلس، وهو يسير مسيرته في طريقة النّظر إلى الأمور وفي الأساليب. أحدهما صبَّ غضبه على يوحنّا (الذّهبيّ الفم)، كليم اللّه، والآخر – مع الفرق الشّاسع بين الاثنين – يسعى إلى الوجاهة واكتساب الشّهرة... (أعمال المجمع).

فجمع يوحنّا أسقف أنطاكية أعضاء وفده من الأساقفة السّوريّين واتّفقوا على كيرلُّس وحرموه هو وممّون أسقف أَفسس. وبعد قليل وصلت البعثة الرّومانيّة، وتلت على الأساقفة رسالة شلستينُس، ووافقت على قرار المجمع. فما كان من الإمبراطور إلاّ أن يُثبّت القرار، وأن يعزل نسطوريوس وكيرلُّس؛ ولكن كيرلُّس استطاع، بحذقه وصلابته، أن يعود إلى كرسيّه

وحريّته بعد ثلاثة أشهر، وأمّا نسطوريوس فلجأ إلى أحد ديورة أنطاكية وهكذا انتهى المجمع إلى الصّيغة التّالية:

نعترف... بأنّ ربّنا يسوع المسيح، ابن اللّه الوحيد، هو إله كامل وإنسان كامل... مولود من الآب بحسب الألوهة قبل جميع الدّهور، ومولود، في الأزمان الأخيرة لأجلنا ولأجل خلاصنا، من العذراء مريم بحسب البشريّة: هو والآب جوهر إلهيّ واحد، وهو ونحن في بشريّته جوهر واحد. لقد اتّحدت فيه الطّبيعتان؛ ولهذا نعترف بمسيح واحد، بابنٍ واحد، بربٍّ واحد. وفي هذه الفكرة نفسها، فكرة الاتّحاد الكامل، نعترف بأنّ القدّيسة العذراء والدة الإله لأنّ اللّه الكلمة تجسّد...

لم يتوقّف الجدل والنّقاش، وراح بعضهم يتّهم كيرلُّس بالأبوليناريوسيّة، وراح بعضهم الآخر يتّهمه برفض إنزال الحُرم بالموتى؛ وراح هو يتجنّب مواقف الجدَل، ولو أدّى ذلك إلى خيبة من كانوا يتسلّحون باسمه؛ وهكذا كانت السّنوات السّتّ الأخيرة من حياته سنوات هدوء وسلام؛ وكان همّه في حياته كلّها، كما كان في سنواته الأخيرة، أن «يعمل، ويحيا، ويموت في الإيمان الّذي بالمسيح» (الرّسالة ١٠)؛ وكانت وفاته في ٢٧ حزيران سنة ٤٤٤.

ثانيًا: أعمالُهُ

لكيرلُّس الإسكندريّ آثار تفسيريّة وعقائديّة ودفاعيّة، وهو أبدًا فيها رجل الكلمة اللاّهوتيّة العميقة؛ وإنّها وإن ثقُلت عبارتها أحيانًا، وإن عراها شيء من التّطويل المملّ، تجري كما من ينبوع غزير، في وضوح الدّلالة، ودقّة الأداء. ونحن نستعرض، في ما يلي أهمّ تلك الآثار.

١. قبل النّزاع النّسطوريّ

عبادة اللّه بالرّوح والحقّ: ١٧ كتابًا في تفسير التّوراة (الأسفار الخمسة

الأولى)، بأسلوب المدرسة الإسكندريّة المجازيّ الرّمزيّ. ذهب فيها إلى أنّ العهد القديم تمهيد للعهد الجديد، وصورة له.

المنحوتات الأنيقة (Γλαφυρά): مجموعة من ١٣ كتابًا تُتمّ الكتب السّبعةَ عشَرَ السّابقة.

تفسير أشعيا والأنبياء الاثني عشَرَ الصّغار

تفسير إنجيل القدّيس يوحنّا: كتاب عقائديّ ضخم وضعه كيرلُّس ما بين ٤٢٥ و٤٢٨، وجرى فيه على غير طريقة الرّمز والمجاز، فقارب النّصّ الحرفيّ، وحاول أن يستبق البدَع بتعاليم واضحة ودقيقة تحدّ من شطط الضّالّين، وتنير طريق الباحثين.

كنز الثّالوث الأقدس الواحد الجوهر – حوارات في موضوع الثّالوث: كتابان فنّد فيهما كيرلُّس أضاليل الآريوسيّة، وبسط عقيدة الثّالوث الكاثوليكيّة في خطّ الكبّادوكيّين ومجمع القسطنطينيّة (٣٨١).

٢. في الأزمة النّسطوريّة

جميع أعمال كيرلُّس من سنة ٤٢٨ إلى سنة ٤٣٢ تقوم على تفنيد الآراء النّسطوريّة ومناهضة نسطور وأتباعه، وهي متعدّدة نذكر منها:

ضدّ تجديفات نسطوريوس (نحو ٤٣٠)

في الإيمان الأرثوذكسيّ: بحث موجّه إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثّاني.

في الإيمان الأرثوذكسيّ: بحث موجّه إلى الأميرات (أخوات الإمبراطور الثّلاث وزوجته أوذكسيّة)، اللّواتي رغبنَ في التماس الحقائق اللاّهوتيّة؛ والبحثان الأوّل والثّاني متكاملان.

الحرمانات الاثنا عشَر (٤٣٠)

شرح الحرمانات الاثني عشَر وثلاث رسائل دفاعيّة متعلّقة بها

٣. السّنوات الأخيرة

الرّدّ على يوليانُس الجاحد (بعد ٤٣٣ وقبل ٤٤١): تفنيد لكتب الإمبراطور يوليانُس الجاحد الثّلاثة "ضدّ الجليليّين". من الكتب الثّلاثين الّتي كتبها كيرلُّس في الموضوع لم يبقَ إلاّ العشَرة الأولى كاملة؛ وسيأتي تفصيل الكلام عنها وترجمة الكتابين الأوّل والثّاني منها.

الرّسائل الفصحيّة: وصل إلينا منها تسع وعشرون بعنوان «مواعظ فصحيّة».

الرّوح يجعلنا صورةً مطابقة للمسيح، وذلك بقدرته التّقديسيّة. إنّه على وجهٍ ما، صورة المسيح مخلّصنا، وهو يطبع فينا المشابهة الإلهيّة. (الرّسالة الفصحيّة ١٠).

ثالثًا: مسيحانيّة كيرلُّس الإسكندريّ

كيرلُّس لاهوتيّ الوحدة في شخص المسيح، في الكلمة المتجسّد؛ يثبت فيه طبيعتين كاملتين متّحدتين. ومريم هي أمّ أحد الأقانيم الثّلاثة، إذ إنّ الكلمة المتجسّد هو الأقنوم الثّاني من الثّالوث الأقدس.

وإذ كانت مدرسة أنطاكية تُشدّد على كمال بشريّة المخلّص، فقد قادها ذلك إلى إبراز التّمييز بين الطّبيعتين البشريّة والإلهيّة؛ وإذ كانت مدرسة الإسكندريّة تشدّد على أُلوهة المخلّص، فقد قادها ذلك إلى التّشديد على اتّحاد الطّبيعتين.

لقد اتّهموا كيرلُّس بأنّه جارى النّساطرة في بعض الأمور، وبأنّه تقلّب في بعض مواقفه اللاّهوتيّة، والأمر ليس كذلك، فموقف اللاّهوتيّ كان

أبدًا رفض التّقسيم في المسيح المتجسّد والقول باتّحاد الطّبيعتين. وقد وُصف «بالصّلابة والثّبات في الفكرة وبالـمُلاينة في التّعبير». أمّا الاتّهامات المختلفة الّتي وُجّهت إليه فمرجعها إلى أنّه لم يكن للاّهوت اليونانيّ بعدُ تعبيرات محدّدة للدّلالة على الطّبيعتين في شخص المسيح الواحد، ولم يكن كيرلُّس ليُدرك تقصير الألفاظ الّتي كان يستعملها للدّلالة على حقيقة ما يريد؛ ولم يُحدَّد التّعبير عن المسيحانيّة إلاّ في مجمع خلقيدونية (٤٥١).

وهكذا فبعد وفاة كيرلُّس ضمّه أصحاب الطّبيعة الواحدة إلى صفوفهم، منتزعين بعض التّعبيرات من قرائنها وحاشرين فيها ما يتمشّى ومذهبهم. وكان كيرلُّس يرجع في أمور كثيرة إلى أثناسيوس فينسب إليه مثلاً القول: «طبيعة اللّوغس المتجسّد الواحدة». والقول لأبوليناريوس لا لأثناسيوس، فثار ثائر الأنطاكيّين لأنّ أبوليناريوس كان يذهب إلى أنّ الكلمة كان يقوم في المسيح مقام الرّوح البشريّ. وهذا كلّه بعيد عن تعليم كيرلُّس.

الكلمة صار بشرًا كما يقول يوحنّا اللاّهوتيّ، لقد اتّحدت الطّبيعة الإلهيّة المحيية بالطّبيعة البشريّة الأرضيّة اتّحادًا لا يُفسَّر ولا يُفقه. ونحن نفهم من ذلك أنّ عمّانوئيلاً واحدًا ظهر من الطّبيعتين بدون أن يخرج من حدود ألوهته بسبب الجسد الّذي اتّخذه (العظة الفصحيّة ١٨).

مع الخلاف القائم بين الطّبيعتين المتّحدتين في وحدة حقيقيّة، لا يوجد إلاّ مسيح وابن وحيد. لم يُلغِ الاتّحاد ما بين الطّبيعتين من اختلاف، ولكنّ الألوهة والبشريّة هما في سيّدنا يسوع المسيح الواحد، بعمل إلهيّ لا يمكن التّعبير عنه (الرّسالة ٤).

خاتمة

أُعلن القدّيس كيرلُّس الإسكندريّ ملفانًا للكنيسة الجامعة في عهد البابا

لاون الثالثَ عشَر؛ والكنيسة ترى فيه معلّمًا في موضوع التّجسّد، وهو أعظم خليفة لأثناسيوس على كرسيّ الإسكندريّة، وسلطته اللاّهوتيّة بعيدة الأثر.

وهو إلى ذلك لاهوتيّ الحياة الرّوحيّة يستخلص من العقيدة منهجيّة السّلوك، فلم يكن عنده اللاّهوت تنظيرًا، والتّجسّد الذي يُكثر الكلام فيه يمتدّ إلى البشريّة كلّها جمعاء؛ إنه مؤلّه ومُحيٍ؛ فاتّحاد البشر بالمسيح هو أمر حقيقيّ حسّيّ: بجسد المسيح الّذي يتناوله المسيحيّون في الإفخارستيّا يصبحون مشتركين في المسيح وفي ما بينهم.

يرى أنستاسيوس السّينائيّ (بُعيد ٧٠٠) أنّ القدّيس كيرلُّس جمع تراث التّقليد الآبائيّ في بناء تعليمه الثّالوثيّ، ويدعوه لذلك "خاتمة الآباء". إنّه، على وجهٍ ما، يختتم عهد الآبائيّة في العالم اليونانيّ.

كيرلس المُدافع

وضع يوليانُس في شتاء ٣٦٢ – ٣٦٣، قُبيل حملته على فارس الّتي لقي فيها حتفه، ثلاثة كتب هاجم فيها المسيحيّة، ولم يصلنا من هذه الكتب إلاّ الأوّل، وبعض مقاطعَ من الثّاني نقلها إلينا كيرلُّس في بعض ردّه. وقد اتّهم يوليانُس المسيحيّة بأنّها خرجت على اليونانيّين كما خرجت على العبرانيّين، وأنّها في أَصل التّراخي والفساد في البلاد، والحكمة في نظره هي طلب الحقيقة، ومعرفة الأُلوهة والتّمثُّل بها.

وِلد يوليانُس في القسطنطينيّة سنة ٣٣٢، ونشأ نشأةً مسيحيّة، وفي سنة ٣٥١ عاد إلى نيقوميدية واحتكّ بالفلاسفة والخطباء الوثنيّين واعتنق المذهب اليونانيّ، وفي سنة ٣٥٤ انتقل إلى أثينة لمواصلة دروسه الفلسفيّة

فمال إلى الأفلاطونيّة الحديثة. وفي سنة ٣٦١ توفّي كونستانْس فانتقلت السّلطة إليه وعدّ نفسه قيصر الوثنيّة، فعمل على إحياء الدّيانة القديمة، وأعاد إلى الوثنيّين هياكلهم وممتلكاتهم. ثمّ راح يكتب الكتب مدافعًا عن عبادة الآلهة. من تموز ٣٦٢ إلى آذار ٣٦٣ أقام في أنطاكية واصطدم بمقاومة الأنطاكيّين، وفي ثورته النّفسيّة وضع كتبه "ضدّ الجليليّين" مشيرًا إلى المسيحيّين بهذا الاسم على أنّ الكنيسة محصورة في الجليل أحد أصغر أقاليم الإمبراطوريّة، وعلى أنّ يسوع ناصريّ والمسيحيّين جليليّون.

وقد ردّ على يوليانُس آباء عدّة منهم ثيوذورس المصّيصي، وفيلبُّس السِّيدنيّ، وثيوذورس القيروانيّ. أمّا كيرلُّس، وقد لمس في مجتمعه أثرًا لكتابات يوليانُس، فهبّ لدحضها وتسفيه صاحبها، فكتب في الموضوع عشَرة كتب، كان الأوّل منها كتاب الدّفاع عن المسيحيّة، وخلاصته أنّ المسيحيّة المتّهمة بالخروج على الشّريعة الموسويّة وعلى ديانة اليونانيّين، استطاعت أن تتخلّص من خرافات اليونانيّين، ولبثت في عقيدتها وحياتها على اتّفاقٍ مع كتب موسى. وفي الكتاب الثّاني وما بعده راح كيرلُّس يستعرض أقوال يوليانُس ويردّ عليها واحدًا فواحدًا مستثنيًا بعض الشّتائم الّتي أبى أن يذكرها لما فيها من سفاهة وتطاول. وهكذا يكون الكتاب الأوّل هو المعوّل عليه في ردّ كيرلُّس، وقد تقابلت فيه الحكمة الوثنيّة والحكمة المسيحيّة، وراح فيه كيرلُّس يخوض في الآثار اليونانيّة ويعتمدها للتّعبير عن العقيدة المسيحيّة بطريقة عقلانيّة.

إلى جانب الصّراع الفكريّ والكلاميّ الّذي نشب بين الرَّجُلين نجد بعض التّشابه ما بين الحكمتين اللّتين يناديان بهما؛ فكلاهما يقولان بأنّ من واجب الحكيم أن يعرف الألوهة ويقتدي بها بممارسة الفضيلة والتّحرُّر من الأهواء، ثمّ أن يكون مثالاً للآخرين، ولكنّ الخلاف بينهما يَكْمُن

في كون يوليانُس، وإن أقرّ بإله أسمى على خطّة الأفلاطونيّين، يجعل سموّه غير صحيح إذ يصدر عنه آلهة آخرون، كما يصدر عنه العالم الماديّ؛ أمّا إله كيرلُّس فإله سامٍ وشخصيّ، لا ينفكّ حاضرًا وعاملاً في العالم الّذي خلقه، تربطه بالبشر محبّة إلهيّة حملته على التّجسّد للتّعامل معهم.

قال جوليان أفيو: «الفلسفة اليونانيّة، والأسرار اليونانيّة والشّرقيّة هي، في نظر يوليانُس، المواطن الوحيدة الّتي يجد فيها الحكيم الحقيقة، والطّريق المؤدّية إلى الاستنارة وإلى الاتّصال بالآلهة. أمّا كيرلُّس فيرى أنّ الفلاسفة اليونانيّين لم يتوصّلوا إلاّ إلى بعض الحقيقة وأنّ الإيمان بالمسيح وحده يقود إلى معرفة اللّه وإلى الاقتداء به، أي إلى الحكمة.

إنّه وإن اختلفت النّظرات فهنالك صلة ما بين الحكمة الوثنيّة والحكمة المسيحيّة. يريد يوليانُس أن يحيي الدّيانة اليونانيّة بتوفيقيّة تجمع الفلسفة والأسرار والمفاهيم والقيمَ الّتي هي من أصلٍ مسيحيّ؛ أمّا كيرلُّس الّذي كثيرًا ما يعصى عليه فهم فلاسفة عصره اليونانيّين فيلجأ إلى المقولات اليونانيّة التقليديّة ليعبّر عقلانيًّا عن العقيدة المسيحيّة».

الرّدّ على يوليانُس

تقديم الكتاب
إلى الإمبراطور الكلّيّ التقوى ثاوذوسيوس
المُخْلِص للمسيح
من الطّوباويّ كيرلُّس رئيس أساقفة الإسكندريّة

١. نجاحك النّادر في سلطتك المقدّسة، الّذي يستحقّ الشّهرة ويصعب الحديث عنه، واستعداداتك في التّقوى الّتي لا تُضاهى ما هي إلاَّ هبة من العلاء استحقَقْتها وحافظتَ عليها من سهام الحسد بفضل ما تحلَّيت به من المهارة في أعظم الأعمال، تلك المهارة التي ورثتَها عن أبيك وعن جدّك، كما يبدو ذلك واضحًا للعيان. وإنّي لأراني محمولاً على تطبيق أقوال مخلّصنا على شخصك، وقد قال: «المدينة على مُرتَفعٍ لا يُمكن أن تخفى[1]». فما هو في العلاء هو أبدًا في العين.

فما الّذي يمكنه أن يعدِلَ سموّك؟ لا شيءَ في العالم، إذ إنَّ مجد صولجانك بلغ أقاصي الأرض مُنيرًا الكون كلّه بألق إِدارتك الكاملة، فيما كان حِلمك وتقواك للمسيح يبهجان السَّماء، أي القوّات العقليّة المالكة في أعاليها. فالإعجاب بك يملأ القلوب في هاتين النّاحيتين،

---

(١) متّى ٥: ١٤.

وامتلاكك هنا وهناك الفضيلة نفسها، كلّ ذلك رفعك وجعلك فوق مستوى المديح أيًّا كان نوعه وامتدادُه. والنّذور الّتي تُقدَّم في سبيلك، أيّها الإمبراطور ثاوذوسيوس المُخلِص للمسيح، إنّما هي علامات نصر، وتيجان، وآيات شكر، ووسائل تكريم أُخرى للسّلطة الإمبرياليّة.

٢. أمّا نحن الّذين دُعينا إلى الخدمة المقدّسة، فكان من واجبنا أن نُقدّم لك كتابًا وضعناه بعنايةٍ كاملة في سبيل مجد اللّهِ الأعظم: ميولك، وعاداتك، وآمال قلبك حملتك دائمًا على تعظيم هذا المجد، وعلى احتقار أولئك الّذين يسلكون سلوك السُّكارى ويُهينونه بهذا الأسلوب أو بذاك، وعلى جعلهم في مصفّ ألدّ أعدائك، وعلى إثابة أولئك الّذين يختارون تمجيد اللّه بالفكر والقول. وإنّي لأرى في هذه الاستعدادات الطيّبة برهانًا على القداسة اللاّئقة بسموّ المقام الّذي تستحقّه. في أحد المزامير الموجّهة إلى المسيح مخلّص العالم صاح النّبيّ داود قائلاً: «ألم أُبغِض مُبغضيك يا ربّ، ألم أَمْقُت مقاوميك، بل أبغضتُهم بغضًا تامًّا وصاروا لي أعداءً[٢]»؟. إنّه كلام حقّ وإنّه ليقدّم برهانًا ثابتًا على تعلّقه بشخصك ذاك الّذي يقاوم بشدّةٍ من اختاروا في عَمَه قلوبهم أن يبغضوك؛ وكذلك يستطيع الإنسان أن يعبّر عن محبّته الثّابتة للمسيح بمقاومة من حطّوا من شأن المسيحيّة، وكأنّ على لسانه كلمات الوحي الصّارخة: «غِرتُ غيرةً للرّبّ[٣]».

٣. عليّ الآن أن أقول ما نوع الكتاب الّذي أُقدّمه لك؛ وأرجو المعذرة لكوني قرّرتُ الكتابة عن ملك لأجل مجد المسيح، الملك الأعظم، الّذي يملك على العالم مع أبيه، وله وحده يحقّ القول: «بي يملك الملوك»[٤]

---

(٢) مز ١٣٩: ٢١. (٣) ٣ ملو ١٩: ١٠. (٤) أم ٨: ١٥.

لأنّه «ملك المجد»[٥] في السّماء وعلى الأرض. يكون من ذلك أنّ من واجب رجال الدّين والعقائد الإلهيّة – أي نحن – الّذين أقامهم المسيح للخدمة، أن يقفوا في وجه من يعملون على الحطّ من شأن مجده، ويبسطوا الحجج الّتي تردُّ السَّفه إلى أصحابه، وتُنقذ القُرّاء من أخطارهم، وتمدُّ بالعون الضُّعفاء الّذين تهدّدهم سمومهم، وتشدّدُ المؤمنين في إيمانهم، وتُرسِّخُ تقليد الأرثوذكسيّة.

من هم الّذين شنّوا الحرب على مجد المسيح؟ إنّهم كثيرون وقد نهضوا في عدّة عهود يدفعهم خُبث الشّيطان وفسادُه؟ ولكن لم يذهب أحد مذهب يوليانُس الّذي نَعِم بمجد السّلطان، ورفض الاعتراف بالمسيح، سيّد المُلْك والسّلطان. قبل تسَنُّمهِ العرشَ كان معدودًا بين المسيحيّين: قَبِل المعموديّة المقدّسة وتقيّد بقيود الكتُب المقدّسة.

٤. ولكنّ أُناسًا فاسدين ومُفسدين، من أتباع الوثنيّة، لا أدري كيف أقاموا به صلات خبيثة، وزرعوا في نفسه زرع الجحود؛ ثمّ استعانوا بإبليس وجرّوه إلى شعائر اليونانيّين، وحوّلوه إلى خدمة شياطين فاسدة بعدما نشأ في حضن الكنيسة والأديار، و«العشرة الفاسدة تُفسد الأخلاق»، على حدّ قول بولس الحكيم. وإنّي لأُثبتُ أنّ من واجب الرّاغبين في الحفاظ على عقيدة راسخة، والحريصين في نفوسهم على الحفاظ الشّديد على تقليد الإيمان الحقيقيّ كأنّه جوهر ثمين، أن لا يفسحوا في المجال لدعاة الخرافة لأن يندسّوا في صفوفهم، ويفسدوا آراءَهم. ألم يُكتب: «مع الرَّحيم تبدو رحيمًا، ومع الرّجل الكامل تبدو كاملاً، مع المتطهِّر تبدو متطهّرًا، ومع المعوجّ تبدو مُلتويًا[٦]». البلاغة الّتي

---

(٥) ١ كو ٢: ٨. (٦) مز ١٨: ٢٢ – ٢٧.

كان يتحلّى بها يوليانُس الكلّيّ القدرة هاجم بها سيّدنا ومخلّصنا يسوع المسيح؛ وقد قادته الوقاحة إلى وضع ثلاثة كتب ندَّد فيها بالأناجيل المقدّسة وبالدّيانة المسيحيّة الطّاهرة، وجعلها حجر عثرة لكثيرين، ومهواة ضلال وأذىً. أجل، سقط الكثيرون من ذوي النّفوس الضّعيفة في حبائل غوايته، وكانوا فريسة القوى الشّيطانيّة؛ وقد ضلّ آخرون من الرّاسخين في الإيمان واضطربت أفكارهم، عادّين يوليانُس ضليعًا في الكتاب المقدّس لأنّه يُكثر من الاستشهاد به غير مُدركين إلى أيّ شيء يرمي في كلامه.

٥. كثيرون من أتباع الخرافة، عندما يصادفون مسيحيّين، ينهالون عليهم بالهزء مستندين في هزئهم إلى كتب يوليانُس على أنّها في نظرهم ذات أثر فعّال لا شبيه له، مضيفين أنّه لم يقم لدينا عالِم يستطيع أن يُسفّهها أو يردّ عليها؛ ولهذا، وبدعوة من كثيرين، واعتمادًا منّي على كلمة اللّه: «والآن فامضِ فإنّي أكون مع فِيكَ[٧]». نهضتُ لأخفض رأس هذا اليونانيّ المتهجّم على مجد المسيح، وآتي إلى عون من ضُلّلوا، مبيّنًا جهلَ هذا الرّجل للكتب المقدّسة، وتجرّؤَه الخبيث على المسيح مخلّصنا.

أُهدي هذا الكتاب، في الموضوع، لسامي مقامك، أنتَ الغيور على الدّين وعلى مجد المسيح. ليكن اللّه أبدًا حارسًا لهذا المقام العالي، وينصره على أعدائه في سعادة لا حدّ لها، ويجعل العالم على قدميه، ويمنحه أن يُورث سلطانه العظيم لبني بنيه في ظلّ رضى المسيح الّذي به ومعه يليق المجد للّه الآب وللرّوح القدس إلى الأبد. آمين.

---

(٧) خر ٤: ١٢.

ردُّ أبينا القدّيس كيرلُّس،
رئيس أساقفة الإسكندريّة،
على كُتب يوليانُس الكافر،
دفاعًا عن عقيدة المسيحيّين النّاصِعَة

الكتاب الأوَّل

مقدّمة

أمام الكتاب المقدّس – الحُكماء:

١. إنّ أولي الحكمة والعقل والرّاسخين في تفهُّم العقائد المُقدّسة ينظرون بإعجاب إلى رونق الحقيقة، ويقدّمون على كلّ شيء الطّاقةَ على اكتشاف فحوى مثَلٍ، أو صيغةٍ غامضة، أو قولٍ لبعض الحكماء وعبارات مُغْلَقة. هكذا، نعم هكذا يغذّون، عن طريق كُتب الوحي المقدّسة، عاقِلَتَهُم الّتي تستهويها الدّقَّة والتّماسُكُ في الأفكار، ويملأون نفوسَهم بالنّور الإلهيّ؛ وإذ كان لهم من سيرتهم الحميدة، والمُقيّدة بسُنَنِ النّاموس مجدٌ عظيم، فإنّهم يوزّعون على غيرهم من البشر أَعطياتٍ ذاتَ قيمة سنيّة. ألم يُكتَب: «إذا كنتَ، يا بُنيَّ، حكيمًا لنفسِك، فكُنْهُ لقريبك[1]».

---

(١) أم ٩: ١٢ (هذا بحسب التّرجمة السَّبعينيّة).

وبخلاف ذلك فإنّ ذوي القلوب الفاسدة والنّفوس المريضة، الّذين لم يَشْملهم النُّور الإلهيّ، يخرجون على العقائد المقدّسة، وبصوتٍ عالٍ ووقحٍ يتهجَّمون على المجد الصَّمدانيّ؛ وبإطلاقهم أقوالاً تجديفيّة «ينطقون بالعَسْف[٢]» على ما ورد في المزامير. وأظنُّ أنّ هذا المرض يأتيهم من سُخفهم الشّديد، ومن الجهل الأعمى المُهَيْمن فيهم، أو بالحريّ من رَوَاغِ الثُّعبان الخبيث، سبب جميع الشّرور، أعني إبليس.

٢. نجد تأييدًا لما قلناهُ في ما كتبه بولس: «ولِئِنْ كان إنجيلُنا لا ينفكُّ محجوبًا، فإنّما هو محجوبٌ عن الهالكين، أولئك الكفَرة الّذين أعمى إلهُ هذا الدّهر بصائِرهم، لئلاّ يُضيءَ لهم نورُ إنجيل مجد المسيح». فأن يكون مَن أُسْمِيَ إلهَ هذا الدّهر، أن يكون هذا السّارق للمجد الأسْمى قد أغرق قلبَ هؤلاء النّاس في حلَكِ الظُّلمات، ذلك أمرٌ لا شكَّ فيه؛ فإنّهم قد ضلُّوا علنًا، وراحوا يَفْرضون على العصر آلهةً لا عددَ لها، من شياطين وأرواح أبطال، دخلت في أقوالهم وفي يقينهم.

قد يذرفُ ذوو الرَّأي السّليم دمعة الأسى على هؤلاء الأشخاص الّذين لم يأخذوا على أنفسهم كتمانَ ما يخجلُ منه أيّ إنسان، بل شدَّهم جماحُ الكُفر إلى نقلِ ضلالتهم إلى الآخرين، تلك الضّلالة الّتي تقوم على خرافةٍ قبيحة.

أشبه ببعض الأفاعي، تراهم عند مَفارقِ الطُّرُق يترصّدون المارّة، ويهاجمونهم بضراوة وينفثون سمّ الهلاك في نفس من أغوته الضّلالة. إنّه ليحقّ لنا أن نقول فيهم: «يا نسلَ الأفاعي، كيف تستطيعون أن تقولوا قولاً جيّدًا وأنتم أَرْدياء[٣]؟» ولا يُخطئ الرّبُّ عندما يقول: «الإنسانُ

---

(٢) مز ٧٢: ٨. (٣) متّى ١٢: ٣٤.

الصّالح من كنزه الصَّالح يُخرجُ الصَّلاح، والإنسان الشّرّير من كنزه الشِّرّير يُخرجُ الشّر». وكذلك: «إنّه من فيض القلب يتكلّم الفم[٤]».

كتُب يوليانُس:

٣. أتكلّم هكذا بعدما قرأتُ كتُب يوليانُس الّذي وجّه إلى ديانتنا المقدّسة انتقاداتٍ لا تُطاق؛ ففي نظره أنّنا ضللنا، وانحرفنا في غباوتنا عن الطّريق المستقيمة والبعيدة عن اللّوم، ورُحْنا كمن يُدحرج صخورًا نُقدِّم للّه العليّ عبادةً خالية من كلّ تبصُّر، لا تتمشّى والشّرائع الّتي نقلها موسى الكلّيّ الحكمة، ولا خرافاتِ الإغريق، أي تقاليدهم وطقوسهم؛ وسلكنا نوعًا ما طريقًا جديدة فنهجنا نهجًا وسطًا خاليًا من أهداف الفريقين. وأنا من جهتي أجرؤ على القول بأنّنا تحرَّرنا من الغباء الّذي يتخبّط فيه الإغريق، وقام دون دَجْلِهم والمسيحيّة سورٌ حصين من المنطق السّديد: «أيُّ شركةٍ بين البرِّ والإثم، وأيّ مُخالطة للنُّور مع الظّلمة، وأيُّ حظٍّ للمؤمن مع الكافر»[٥]؟ لسنا على خلافٍ مع كُتب موسى، والسّلوك الّذي نسلكه لا يُخالف في شيء وصاياه الإلهيّة؛ وإنّي سأحاول أن أكتبَ ذلك بكلّ ما أُعطيتُ من مقدرة، وفي ذلك سانحةٌ فريدة للتدرُّب على الحِجَاج.

الخلافات بين الفلاسفة اليونان

٤. وإلى ذلك أرى من الضّروريّ أوّلاً أن أُجيب بما يلي: إنّه من الثّابت، على حدّ قول المثل: «أنّ الحكيم يولَدُ من حكيمٍ آخر»؛ ولكن أليس من الثّابت أيضًا أنّ أفعال الآباء وحركاتهم ملموسة عند أبنائهم، ولكن الأفعال والحركات عند المتأخِّري العهد ليست لأسلافهم؟ وهكذا

---

(٤) متّى ١٢: ٣٥ و١٢: ٣٤.

(٥) ٢ كو ٦: ١٤ – ١٥.

فبما أنّ أبناء اليونانيّين يُفاخرون بمُعلّمي الفكر لديهم، وإذ كانوا يتخيّلون أنّ لهم علينا سطوةَ تخويف بذكر أسماء الأنكسيمندرسيّين، والأمْبَذُكلسيّين، والبروتاغورسيّين، والأفلاطونيّين، مُضيفين إلى هذه السّلسلة سائر المُنشئين لمُعتقداتهم النّابية - وإذا جاز لي التّعبير - سائر مصادر جهلهم، فما لنا إلاّ أن نذكر الحرب القائمة بين نظريّاتهم المُتباينة، وكيف يواجهون كلّ عنصر من عناصر الواقع والحقيقة بتبريرات متنافرة.

قِدَم موسى

وإلى ذلك فَلْنُبيّن أنّ موسى، من ناحية التّاريخ، يمتاز بالأقدميّة الشّاسعة، وأنّه نقل إلى البشر هيكليّة تعليم سديد خالية من كلّ التواء، تناول فيها الجوهر الإلهيّ السّاميّ، وروى لهم أقْومَ روايةٍ عن خلق العالم؛ وأنّ قوانين التّقوى والعدل الّتي شرّعها لهم تدعو إلى الإعجاب؛ وأنّ الحكماء، الّذين يدعوهم اليونانيّون هكذا، وُلدوا بعده بزمنٍ مديد، وبتاريخٍ حديث، وانتهبوا تُراثَهُ لينسجوا منه نسيج أعمالهم، وإن لم يستطيعوا أن يتبنّوا بنجاح تعليمه الرّصين، ويظهروا أحيانًا بمظهر قول الحقيقة.

٥. بعض هؤلاء الأشخاص وُلدوا إذن بعد موسى، وآخرون كانوا في أَشُدِّهم لدى ظهور الأنبياء القدّيسين بعد عهد موسى: من اعتنقوا منهم تعاليمَ هؤلاء الأنبياء نعموا بصيتٍ أفضل من صيت غيرهم، وإن نقلوا لنا عن الله آراءً لا تخلو من خطأ.

هكذا كان موسى الإلهيّ أقدمهم بالميلاد عهدًا، وكان ظهور الآخرين بعده متأخّرًا جدًّا؛ وإنّنا سنبيّن ذلك كلّه بوضوح معتمدين أوثق وأدقّ ما دوّنه المؤرّخون. ونحن نرجو ممّن يقرأون ما نكتبهُ أن لا يُسيء إلى صبرهم

النّصّ، ولا سلسلة الأسماء والتّواريخ، وأن يُظهروا بعكس ذلك عطشًا شديدًا إلى معرفة الحقيقة بكلّ دقائقها، وأن يكون لهم من الاستعداد ما يُساعد ويُفيد.

الطُّوفان

٦. فنوح، أحد أصفياء اللّه، يأتي في الجيل العاشر بعد الإنسان الأوّل آدم. وإذ كان الطُّوفان قريب الوقوع، وسكّان الأرض على وَشْك الهلاك في هذه الفاجعة، أمرهُ اللّه، سيّد الكون، بأن يصنع تابوتًا ويَدخله هو وبنوه وامرأته ونسِوةُ بنيه، وشتّى أنواع الحيوانات الدّاجنة ممّا يطير في الهواء ويدبّ على الأرض، وينطلق في التّابوت على المياه. وبنجاح هذه المُهمّة نجا نوحٌ ومن معه فيما هلك كلّ جنس البشر وكلّ عالم الحيوان. وعندما انخفض مستوى الماء استقرَّ التّابوت على جبل أرارات، أي في أرمينيَة؛ وما إن ألقى نوح رجله على اليابسة حتّى قدّم للّه ذبيحة الحمد والشّكران.

لا شكّ أنّ في الكتب المقدّسة الّتي أوحى بها اللّه شهادةً صادقةً على هذه الأحداث، ولكن بما أنّ بعض أتباع الخُرافات قد ادّعَوْا أنّ ديانتنا مجموعة من أقاصيص جريئة خالية من أيّ وجهٍ من وجوه الحقيقة، رأيتُني مضطرًّا أن أورد أيضًا أقوال بعض مؤرِّخيهم، أعني إسكندر بوليسترس وأفيذينوس: فقد رَوَيا هذه الأحداث في كتبهما، وإن تعرّضا لبعض النّقد غير المألوف، وهذا أمر ليس بالمستغرب بالنّسبة إلى كُتّابٍ لم يطّلعوا على عقائد الإيمان الحقيقيّ.

٧. إسكندر[٦] يقول ما يلي: «بعد وفاة أوتيارتُس ملك ابنُهُ كسيسُوثرُس

(٦) إسكندر راوية ومؤرّخ وُلدِ في أواخر القرن الثّاني، نُقل من آسية الصّغرى إلى رومة سجينَ حرب ثمّ حُرّر، وله كتابات في تاريخ اليهود وعاداتهم. لم يبقَ من آثاره إلاّ بعض المقاطع.

ثماني عشْرةَ حقبةً. وقيل إنّ الطُّوفان جرى في عهده». ويُضيف: «لقد نجا كسيسُوثرُس من الهلاك لأنّ كرونس كان قد أخبره بما سيجري، وأمره بأن يصنع تابوتًا يعوم فيه هو وطيورٌ وحيوانات دابّة وأخرى داجنة».

أمّا أفيذينُس[٧] فإنّه يعرض الأحداث بطريقةٍ أوضح ويقول: «بعد (أوتيارتس) انتقلت السّلطة إلى عدّة أشخاص منهم كسيسُوثرُس الّذي أخبره كرونس بأنّ أمطارًا غزيرة ستنهلُّ على البلاد في الخامسَ عشَرَ من شهر ذاسيوس[٨]، وأوعز إليه أن يجعل في مكان أمين جميع الوثائق المكتوبة والمجمّعة في هليوبولس السّيبارسيّين. فعمل كسيسُوثرُس بما أُوعِزَ به إليه وتوجّه إلى أرمينية حيث انهالت عليه الأحداثُ الّتي أنبأه بها الإله. وعقبَ اليوم الثّالث لتوقّف الأمطار أرسل بعض الطّيور على سبيل التّجربة، علّها تجد أرضًا طافيةً على وجه الماء، ولكنّها لم تصادف ما يستقبلها إلاّ بحرًا غير واضح المعالم، لم تستطع السّقوط عليه، فعادت إلى كسيسُوثرُس؛ وأعاد هذا الكرّة فكان حظُّها حظّ الأولى؛ وفي محاولة ثالثة نجح كسيسُوثرُس، إذ رجعت الطّيورُ بأرجُلٍ يعلوها الوحل؛ عند ذلك وارته الآلهةُ من الأرض؛ أمّا السّفينةُ فبقيت في أرمينية، تقدِّم للسكّان من خشبها تمائم شافية».

٨. المؤرّخان يدعوان نوحًا كسيسُوثرُس، وذلك تمشّيًا مع الرّواية الأشّوريّة؛ وقد خرجا عن الحقيقة في روايتيهما عندما كتبا أنّ كرونس هو الّذي تنبّأ عن مستقبل كسيسُوثرُس، وكان الأحرى بهما أن يتكلّما على إله

(٧) أفيذينس مؤرّخ لم يبقَ من آثاره إلاّ بعض المقاطع، إنّه من ضواحي البحر الأسود، من بلدةٍ تُدعى أَبيذُس، روى عنه أوسابيوس أنّه وضع تاريخ الكلدانيّين.

(٨) الشّهر ذاسيوس المكدونيّ هو أيّار أو حزيران.

الكون، وليس في الأمر غرابة، وهما في منأًى عن نعمة النّور الإلهيّ، ومشاهدة روعة جمال الحقيقة.

فنوحٌ إذن عندما خرج من التّابوت، قدّم ذبيحةً، ولبث مقيمًا على تلك الأرض مع ذويه؛ وكان له ثلاثة بنين لهم عددٌ كبير من البنين، وكان هؤلاء جميعًا ثاني موجة بشريّة على وجه الأرض؛ وكان الشّرق مسكنهم في بدء الأمر، ثمّ تفرّقوا في شتّى الأنحاء عندما استشاط اللّه الكلّيّ القدرة غيظًا من جرّاء البُرج الّذي أقاموه، وبلبل لُغتهم[٩]. وأن يكون هذان المؤرّخان اللّذان أتينا على ذكرهما قد أشارا إلى هذا الحادث، فإنّنا سنرجع إلى ما دوّناه لنقف على حقيقة الحال.

برج بابل

٩. إليكم ما يقول إسكندر: «تقول العرّافة إنّه في العهد الّذي كان البشر ينطقون بلغة واحدة، قام قومٌ منهم ببناء برجٍ شاهق، رغبةً منهم في بلوغ السّماء؛ ولكنّ اللّه أطلق رياحًا شديدةً على البرج فأطاحت به، وجعل لكلّ جماعة بشريّة لغةً خاصّة. ومن هنا اتّخذت مدينة بابل[١٠] اسمها».

أمّا أفيذينُس فيقول: «يُروى أنّ وجوه هذه البلدة وأعيانها، وقد نفخت الكبرياء والعظمة آنافهم، تصوّروا أنّهم فوق الآلهة قدرةً، وبنَوْا بُرجًا ضخمًا جدًّا، في المكان الّذي توجد فيه اليوم بابل؛ كانوا يقتربون من السّماء عندما هبّت عواصف ريح شديدة مُلبّيةً طلب الآلهة، وأطاحت بالبناء الضّخم على مَن فيه، وقد أُطلق على أطلاله اسم بابل؛ والبشر الّذين كانوا ينطقون بلغةٍ واحدة، تلقّوا من الآلهة لغاتٍ ذات لهجات مختلفة».

---

(٩) تك ١١: ١ – ٩.

(١٠) بابل من البَلْبَلة، وقد جاء في تك ١١: ٩: «ولذلكَ سُمّيت بابل الرّبّ هناك بلبل لغة الأرض كلّها».

١٠. بعد تشتُّت ذرّيّة نوح، جرت الأيّامُ جريَها، وقيل إنّ نينُس بن أَرْفيلس كان أوّل من ملَك بأُبّهة على الأشّوريّين؛ وقد أطلق اسمه على مدينة نينوى، وأقامت لها زوجته سميراميس أَسوارًا مَهيبة.

إبراهيم

وفي هذا العهد الّذي كان يملك فيه نينُس على أشّور وأوروبس على سيكيونيون يجعل المؤرّخون ولادة إبراهيم، رجل العقل الشّموليّ، والمعارف الواسعة، الّذي قرّر أن يجعل أولى اهتماماته في البحث عن الحقّ، وعن صانع الكون وسيّده. وكان يمقتُ عبادات الأشّوريّين، أي ضلالة الوثنيّة. وكان ينكر المعتقدات الأشّوريّة ويتنحّى عنها، أي المعتقدات الغارقة في ضلالة الوثنيّة، مُقتنعًا أنّ معرفة الحقيقة من شأنها أن توفّر له شتّى أنواع السعادة، فاجتذب عليه عطف اللّه الّذي سمعه يخاطبه قائلاً: «انطلِقْ من عشيرتِكَ وبيت أبيك إلى الأرض التي أُريك[11]».

كيف عاش إبراهيم، وما كانت ذرّيّته، إنّي أعدلُ الآن عن تفصيل ذلك لأنّ الحال تقضي بأن أتحوّل إلى أمور أُخرى؛ وسأُغفِلُ الأَجيال الوسيطة لكثرة الوثائق التّاريخيّة وأسماء الأعلام الواردة فيها، وأقفزُ إلى موسى نفسه، كليم اللّه.

موسى

١١. أربعَ مئةٍ وخمسًا وعشرين سنةً بعد إبراهيم الإلهيّ وُلد موسى

---

(١١) تك ١٢: ١.

في مصر وكان أبناء إبراهيم قد نزحوا إليها وأقاموا فيها. وما إن ترعرع موسى واستوعب الحكمة المصريّة حتّى أكبَّ على العمل كمقدّمةٍ لرسالته الإلهيّة. وإنّنا بعدما حدّدنا المدّة الّتي تفصل إبراهيم عن موسى، نعود إلى حيث وصلنا، جاعلين هذه المدّة الفاصلة مصدرًا للتّسلسل الزّمنيّ، ومنطلقين من ولادة موسى على أنّها المرحلة الأولى.

في السّنة السَّابعة من حياة موسى وُلِد، على حدّ ما قيل، بروميثاوس، وأبيميثاوس، وأطلس شقيق بروميثاوس، وأرغُس ذو العيون المئة. وعندما بلغ موسى الخامسة والثّلاثين رقي العرش كيكروبْسُ، الملقّب بذي الطّبيعتين، أوّل ملك على أثينة: قيل إنّه أوّل إنسان قدّم ذبيحة ثورٍ، ودعا زفس «ربّ الآلهة» وفقًا لقول اليونانيّين. وكان موسى في السّابعة والسّتين عندما حدث في ثساليا طوفان ذفكاليونس، وعندما تلاشى في أثيوبيا فايثون الّذي يجعله الإغريق ابن الشّمس. وعندما بلغ موسى الرّابعة والسّبعين من عمره ظهر هلّين بن ذفكاليون وبيرّا، واشتقّ لليونانيّين من اسمه الاسم هلّين.

١٢. في السّنة المئة والعشرين من حياة موسى أسَّس ذرذانُس مدينة ذَرْذانيَة، وكان أمينْتا ملكًا على أشّور، وستينيلُس على أرغُس، ورمسيس على مصر (كان هذا الأخير يُدعى أَجبْتُس كأخي داناوس). وفي السّنة المئة والسّتّين بعد ولادة موسى ملك قدموس على ثيبة؛ وولدت ابنتهُ سميلي ذيونيسُس من زفس، على ما يروي اليونانيّون؛ وفي هذا العهد أيضًا كان يعيش الموسيقيّان لِينُس الثّيبيّ وأمفيون، وفي الوقت نفسه آلت رئاسة الكهنة، عند العبرانيّين، إلى فِنحاس بن أليعازر بن هارون، وقد جرى ذلك بعد موت هارون. وفي السّنة المئة والرّابعة والتّسعين لموسى جرى، على ما قيل، خطف كوري من قِبَل إيذوناوس ملك المولتّيّين؛

وكان لهذا الملك كلب ضخم اسمه كَرْفُرُس أطلقه على بيريثُس وثيسيوس عندما حاولا خطف زوجته. يُحكى أنّه بعد موت بيريثُس أقبل هيركليس وأنقذ ثيسيوس، وكانت أسطورةُ ثيسيوس ينجو من جهنّم النّيران. وفي السّنة المئتين والتّسعين بعد موسى قتل فارس ذيونيسُس الّذي جعلوا قبره في ذلف إلى جانب أبولّو الذّهبيّ. وفي السّنة الثّلاث مئة والخامسة والخمسين بعد موسى اعتلى فريامس عرش لاوميذون. وفي السّنة الأربع مئة والعشر اجتيحت طروادة فيما كان أَسَّبون ملكًا على العبرانيّين، وأغاممنون على أَرغُس وأوفري في مصر، وطوطاتُس في أشّور.

من سقوط طروادة إلى الأولمبياد الأولى

١٣. وهكذا فما بين مولد موسى وسقوط طروادة أربع مئة وعشر سنوات.

أَعِرِ الأشخاص الآتي ذكرُهم انتباهَك: سألقي عليهم نظرة سريعة، غير متوقّف عند الخاملي الذّكر منهم، وقاصرًا همّي على الوجوه البارزة.

فبعد أربع سنوات للاستيلاء على طروادة اعتلى إينيه العرش اللاّتينيّ، فيما كان ذيموفورن بن ثيسيوس يملك في أثينة، وشمشون قاضيًا لدى العبرانيّين. وبعد أربع وستّين سنة لسقوط طروادة مات عالي الكاهن، على ما ورد في سفر الملوك الأوّل[١٢]: وأخذ الغرباء تابوت اللّه إلى ديارهم[١٣]؛ وكان الطّوباويّ صموئيل نبيًّا، وقليلاً بعد ذلك جرى مَسحُ شاول ملكًا. وبعد مئة وأربع وستّين سنة لسقوط طروادة ولد هوميرس وهيسيوذس، على حدّ ما قيل، في ذلك العهد كان لافوتس يملك في

(١٢) ١. صمو ٤: ١٨ (١٣) ١ صمو ٤: ١٧.

لكيذيمونة (إسبرطة)، ولاوثانس في أشّور، وألْبا سيلفيوس لدى اللاّتين، وأجيلاوس في كورنْثِيَة. وفي السّنة المئة والسّابعة والسّتّين بعد الاستيلاء على طروادة كان إيليّا وأليشع نبيَّيْنِ، فيما كان يورام ملكًا على العبرانيّين، وأركيلاوس ملكًا على اللّكيذيمونيّين. وفي السّنة الثّلاث مئة والرّابعة والسّتّين بعد سقوط طروادة كان لوكورغس يسنّ الشّرائع في لكيذيمونة، فيما كان أغيمونس يملك في كورنثس، وبروكا سيلفيوس لدى اللاّتين. وفي السّنة الثّلاث مئة والتّاسعة والسّبعين بعد الاستيلاء على طروادة كان هوشع، وعاموص، وأشعيا، ويونان أنبياء؛ وهنالك من يذهب إلى أنّ هيسيوذس لم يكن معاصرًا لهوميرس، بل وُلد في السّنوات الّتي كان فيها عَازريا، المدعوّ أيضًا عُزيّا، ملكًا على العبرانيّين، وأرفاكس على الميديّين، وبوركا سيلفيوس على اللاّتين.

من الأولمبياد الأولى إلى الثانية والأربعين

١٤. هكذا من سقوط طروادة إلى الأولمبياد الأولى أربع مئة وخمس سنوات، فيكون من مولد موسى إلى هذه الأولمبياد ثماني مئة وخمس عشرة سنة.

في الأولمبياد الأولى وُلد، على ما يُقال، الشّاعر الملحميّ أركتينُس الميليسّيّ، وريموس ورومولوس، وكان في هذا العهد يواتان ملكًا في اليهوديّة، وفاكمه في إسرائيل. في الأولمبياد التّاسعة وُلِد أوميلس الشّاعر الملحميّ، والعرّافة أورثريا؛ وفي السّابعة عشرة وُلدَت العرّافة هيروفيلة: في الأولمبياد الثّالثة والعشرين وُلد، على ما قيل، أرخيلوخُس، وكان إذ ذاك منَسّى ملكًا في اليهوديّة. وفي الأولمبياد التّاسعة والعشرين اشتهر، على ما يبدو، هيبوناكس، وسيمونيذس، والموسيقيّ أريستوكسينُس. وفي

الأولمبياد الخامسة والثّلاثين يجعل الرُّواة ميلاد ثاليس الميليسّيّ ابن أكساميوس، أوّل فلاسفة الطّبيعة عهدًا، والّذي امتدّت حياته، على ما قيل، إلى الأولمبياد الثّامنة والخمسين. في الأولمبياد السّادسة والثّلاثين كان يتنبّأ في اليهوديّة إرميا الإلهيّ، وكذلك صَفنيا. في الأولمبياد الثّانية والأربعين اشتهر ألكمان، وفيتّكوس الميتيلانيّ – أحد الحكماء السّبعة – والشّاعر ستيسِيخورس. ونحو هذا التّاريخ ظهر الطّوباويّ دانيال ورفاقه.

من الأولمبياد السّادسة والأربعين إلى المئة والثّانية عشرة.

١٥. في الأولمبياد السّادسة والأربعين سنّ صولون الشّرائع بعدما ألغى شرائع ذراكون، ما عدا تلك الّتي تتعلّق بالقتل. في الأولمبياد التّاسعة والأربعين كان اليهود في بابل، أو في جبال فارس أو ميديا (كانوا قد أُخضِعوا للسّبي). وكان دانيال وحزقيال يتنبّآان فيما بينهم. وفي الأولمبياد الخمسين اشتهر الحكماء السّبعة وفيلسوف الطّبيعة أَنكْسِيمَنْدُرس الميليسّيّ. وفي الأولمبياد السّادسة والخمسين، في عهد قورش الفارسيّ، تنبّأ حجّاي وزكريّا، وكان سيمونيذس وخيلون، من الحكماء السّبعة، قد بلغا الشّهرة. وفي الأولمبياد الثّامنة والخمسين تألّق نجم الشّاعر ثيوغنِس. وفي الأولمبياد التّاسعة والخمسين ظهر الشّاعر الغنائيّ إيفيكُس، والمؤرّخ فركيذِس، والشّاعران المأسويّان فوكيليذِس وكْسانوفانِس. وفي الأولمبياد الثّانية والسّتّين ظهر فيثاغورس، وفي السّبعين ذيموكريتس وأنكساغوراس فيلسوفا الطّبيعة، وهيركليتُس الملّقب بالغامض. وفي الأولمبياد الرّابعة والسّبعين ظهر فرينيخُس وخيريلُس ودياغوراس فلاسفة الطّبيعة. وفي الأولمبياد السّادسة والثّمانين ظهر ذيموكريتُس الأفذيريّ، وكذلك أمبيذكلس وهيبوكراتس وفروذيكس وزينون وبرمنيذس. وفي الأولمبياد الثّامنة والثّمانين ظهر الشّاعران الهزليّان

أرسطوفانس وأفبولس، ووُلِدَ أفلاطون. وفي الأولمبياد المئة والثّالثة قيل إنّ أرسطو شبَّ وتتَلمذ لأفلاطون. ويُجعل في الأولمبياد المئة والثّانية عشْرة بناء الإسكندرية في مصر، أي في السّنة السّابعة لملك الإسكندر؛ ويرجع إلى هذه الفترة ظهور الفيلسوفين أنكسيمانُس وأبيقورس.

من الأولمبياد المئة والرابعة والعشرين إلى ميلاد المسيح.

١٦. في الأولمبياد المئة والرّابعة والعشرين، في عهد بطلماوس الملقّب فيلَذلْفُس في مصر، قيل إنّ سيرايس أُدخل إلى الإسكندريّة، آتيًا من سينوبس؛ وإذ كان مُرادِفًا لبلوتون، في نظرهم، أُطلق على الهيكل الّذي كان المصريّون يقيمونه لتمثاله اسم راكوتس، وهو بلغتهم بمعنى بلوتون؛ ولهذا السّبب أنشِئ الهيكل بقرب المقابر. واليونانيّون مختلفون في شأن سيرابس، فمنهم من يذهب إلى أنّه أوزيرس، وآخرون إلى أنه أبيس أي بلوتون. وإذ كان الخلاف شديدًا في هذا الشّأن، قيل إنّهم رفعوا تمثالاً لأوزيرابس جامعين من الاسمين أوزيريس وأبيس اسمًا واحدًا. والتّقليد يروي قصّة وفاة هذين الشّخصين ودفنهما، وأنّهما كانا رجُلين معروفين، وقد جرى مع الأيّام أن أُهمل المقطع «أوزي» فبقي للتّمثال الاسم سيرابس.

إنّ بطلماوس المذكور آنفًا كان من الملوك المتبحّرين في العلم، وقد بعث بأحد ثقاته إلى اليهوديّة، حاملاً رسالة إلى أليعازر رئيس الكهنة لذلك العهد وفاقًا للنّاموس، وطلب إليه أن يُتحفه بجميع كتب موسى والأنبياء القدّيسين الّتي كان يتوق إلى الاطّلاع عليها؛ وكان يرغب في أن يُرسَل إليه من يستطيع نقلها إلى اليونانيّة: وهذا ما تحقّق.

في المئة والرّابعة والتّسعين، في عهد أوغسطس قيصر برومة، وُلِد بحسب الجسد ربُّنا يسوع المسيح.

أَقدميَّةُ مُوسَى

١٧. بهذا التّحقيق الدّقيق للعهود والسُّلالات ألا يثْبتُ أنّ موسى الإلهيّ يسبق جميع حكماء اليونان عهدًا، وأنّ هؤلاء بالنّسبة إليه يُعدُّون حديثين ومتأخّرين؟ وفي الواقع أنّهم ظهروا بعد بدء تسلسُلِ الأولمبيادات بأمدٍ بعيد! من هنا يبدو لي أنّه من السّهل التماس – ومن الحقّ إثبات – أنّ هؤلاء الحكماء لم يكونوا على جهل كامل لتعاليم موسى، وأنّهم حظوا بإدراك شيءٍ من هذه الحكمة الصَّافية الّتي بثّها اللّه فيه؛ وقد أتاح لهم ذلك أن يمزجوا بُهتانهم ببعض جوانب الحقيقة، وأن يُطيّبوا حمأهم بأطيب العطور.

يا لَدروس الحكمة، ويا لَلتّعاليم الجليلة، تلك الّتي نجدها في آثار موسى! وكيف لا يقف المرءُ دَهِشًا أمامها؟! كلّ من تتبّع من قريب دقائق اليونانيّين يرى أنّ الفلسفة تنقسم إلى علم نظريّ، وعلم عمليّ، وأنّ الشّخص الّذي يبرع في هذين العلمين كليهما يُعَدّ مالكًا للفلسفة. عُدَّ موسى رجلاً من هذا النّوع من الرّجال، نعم عُدَّهُ من هذا الطّراز! لم يبلغ مبلغه أحد في كلام الوحي عن الجوهر الّذي يسمو على كلّ جوهر، عن المجد الّذي لا يُضاهى، عن التّفوّق على كلّ خليقة؛ فهو يُبيّن أنّ خالق الكون وسيّده هو اللّه، الواحد الأحد؛ ولهؤلاء الّذين يطلبون الخير ويسعَون وراء الفضيلة نرى موسى يضع النُّظم المُثلى الّتي من شأنها أن ترفعهم إلى مستوى التّقدير لدى الجميع.

الحكماء اليونانيّون نهبوا موسى

١٨. قد يُقال لي: «نعم، إنّ عهد موسى يسبق عهد حكماء اليونان،

ولكنّ هذا السَّبق لا يكفي في الحقيقة للادّعاء بأنّهم اختلسوا الحكمة الّتي كانت فيه، أو على الأقلّ بأنّهم جعلوها منسجمةً مع مذهبهم». فالمسألة إذن هي في معرفة ما تؤدّي إليه نظريّتنا من التّأييد الكامل أو الإنكار: على القرّاء النّابهين أن يحكموا.

من المُمكن القول بأنّ مؤرّخي اليونان قد ضربوا في الأرض كلّها في عطشهم إلى المعرفة، ورغبتهم في أن يظهروا مُلمّين بكلّ شيء تقريبًا، غير مُغفلين أيَّ حدَث، وكان بهذا كلّه طموحهم إلى أن يكلّلوا آثارهم بإكليل الرّوعة والكمال. فكيف يكون من المُمكن لأمثال هؤلاء الرّجال الدّائبين على المعرفة المُفيدة أن يُغفلوا الاطّلاع على أحداث تاريخيّة بمثل هذا القدر من القيمة، وفي طيّاتها التّفسيرات الدّقيقة لمذاهب وشرائع عريقة وذاهبة في أعماق التّاريخ؟ وهكذا ففيثاغورس السّاموسيّ وطاليس الميليسّيّ قضيا في مصر فترةً من الزّمن غير قصيرة يجمعان فيها الوثائق وشتّى العلوم المنسوبة إليهما قبل أن يعودا إلى وطنهما. أفلاطون بن أرسطونس نفسه يشير في التّيماوس إلى أنّ صولون الأثيني سافر إلى مصر واستمع لأنبياء كذبة أو كهنة محلّيّين يقولون له: «صولون، صولون، إنّكم، أنتم اليونانيّين، أبدًا أحداث! ليس في اليونان شيوخ: لا يملك أحد فيها نفسًا فتيّة، لأنّكم خالون من كلّ فكرةٍ قديمة، ومن كلّ معرفة جعلها الزّمنُ موّقرة. إنّكم غافلون عن كلّ ذلك، لأنّكم، لأجيالٍ مُتعاقبة، تتوارَوْن غير تاركين وراءكم شهادةً مدوّنة ناطقة!...».

شهادات مؤرّخيّ اليونان

١٩. هوذا، على ما أرى، ما يجعلنا نلمس الأقدميّة الرّائعة في المسيحيّة؛ فمن جهة لم يكن اليونانيّون قد عرفوا الكتابة بعد – لم يكد

بعدُ قدموس ينتقل من فينيقية حاملاً إليهم الألفباء - فيما كانت كتُب موسى قد دُوّنت؛ ومن جهة أُخرى لا شكّ في أنّ صولون واضع شرائع أثينة، وأفلاطون نفسه كانا من المعجبين بكتابات موسى عندما أقاما في مصر يطلبان الشّهرة بأنّهما أوسع علمًا من أيّ إنسانٍ آخر.

مؤرّخو اليونان عرفوا موسى حقّ المعرفة، وهذا يظهر في مؤلّفاتهم. فوليمون ذكره في كتابه الأوّل من تاريخ اليونان، وذكره كذلك بطلماوس المنديسيّ، وهلاّنيكس، وفيلوخورس، وكاستور، وكثيرون غيرهم. وقد روى ذيوذورس الّذي عُنيَ بالتّاريخ المصريّ أنّه سمع الحكماء هناك يتحدّثون عن موسى؛ هوذا ما كتبه بحرفه: «بعد طريقة الحياة القديمة في مصر - الّتي تُلحقها الأسطورة بعهد الآلهة والأبطال - قيل إنّ أوّل من حوّل الجماهير إلى اعتماد الشّرائع المدوّنة هو رجلٌ متفوّق في مواهبه العقليّة، وذو تاريخ بارز في ما كان اليهود ينقلونه من أخبار: موسى الّذي كان يُدعى إلهًا». وإذ كان جمهورٌ من المصريّين يَرون أنّ موسى متحلّيًا بجميع الفضائل فقد دعَوهُ إلهًا؛ ولا شكّ أنّهم كانوا بذلك يحاولون تكريمه، ولعلّهم عرفوا ما قال له إلهُ الكون: «انظُرْ قد جعلتُك إلهًا لفرعون[١٤]».

الإيمانُ باللّهِ والخَلْق

شروط المعرفة الحقيقيّة والإيمان

٢٠. فأن تكون أقدميّة موسى وتعليمه سبَقا في الزّمن الحكمة الّتي يفخر بها اليونانيّون، وأن تكون تعاليمه أقدم شهرةً من تلك الحكمة، لقد قلتُ في ذلك ما يكفي، وكان قولي ثابتًا لا يقبل النّقاش والمُماحكة.

---

(١٤) خر ٧: ١.

عليّ الآن أن أعرض العقائد الّتي كان العبرانيّون يعتقدونها في موضوع اللّه وبدء الخليقة، ثمّ أن أوضح لِقُرّائي آراءَ مفكّري اليونان في الموضوع نفسه؛ فإذا تمشّى هؤلاء المفكّرون مع ما يرويه كتاب الوحي كانت مواقفهم رائعة، وكانت آراؤهم متّفقة؛ ولكن إذا ذهب كلّ واحد منهم مذهبًا خاصًّا، ونادى باكتشافات خاصّة، دبّ الخلاف في ما بينهم، وتقارعت الآراءُ الشّاذّة. في الواقع أن لا شيء يؤهّلنا للنّظر في ما يفوق عقلنا وتصوّرنا ما لم يُنِرِ اللّهُ، سيّد الكون، بصيرتنا، ويبثّنا الحكمة، ويهبْ لساننا الوسائل الكافية، ويؤهّلنا لأن نُدرك ونفسِّر، على حسب ما في وسعنا، شيئًا من السّرّ الّذي يُحيط به؛ ونعمةٌ كهذه ليست من نصيب أيّ إنسان: إنّها من نصيب أولئك الّذين يكونون بمعزلٍ عن الأهواء الجسديّة، وبمنجاةٍ من الفساد الأرضيّ، أولئك الّذين صحّت أرواحُهم فعرفوا أيّ الفضائل تقود الإنسان إلى التّقوى: ومثل هذه الصّفات يحثّنا عليه إله الكون قائلاً بصوت داود: «كفّوا فاعلموا أنّي أنا اللّه[١٥]». ويُضيف سيّدنا يسوع المسيح قائلاً: «طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم يُعاينون اللّه[١٦]». والحال أنّ الطّبيعة العُليا لا يمكن إدراكها بعيون الجسد، بل بعيون الفكر الدّاخليّة والسّرّيّة الّتي تثير في الإنسان شتّى مقتضيات الفضُول الدّقيقة، ومن خلال رؤًى تفوق الحسّ، تلتقط نور الوحي الإلهيّ.

اللّه الواحد والوثنيَّة

٢١. النّاس الّذين جاءوا العالم ما بين آدم ونوح عبدوا إلهًا واحدًا سيّد العالم وصانعه بالطّبيعة وفي الحقيقة؛ وما من أحدٍ ليمَ على كونه انجرَّ إلى عبادة آلهةٍ أُخرى، أو إلى عبادة شياطين فاسدة. ولكن، بعد الطُّوفان

---

(١٥) مز ٤٥: ١١.   (١٦) متّى ٥: ٨.

وبناء البُرج، وقد تعدّدت اللُّغات، راح البشر المنتشرون في شتّى أنحاء الأرض، يرتأون آراءً غريبة في شأن اللّه نفسه. وإذ حيّدوا نفوسهم عن الحقيقة وأغرقوها في الزّائل والأرضيّ والمُتَع الجسديّة استرسلوا إلى أنواعٍ متباينة من السُّلوك وكانوا من ثمَّ مسؤولين بعض المسؤوليّةِ عن ضلالةِ الوثنيّة.

تصوّر البعض أنّ السّماء هي اللّه، وتصوّر البعض الآخر أنّه الشّمس والقمر، أو الكواكب، وعناصر الطّبيعة الّتي قيل إنّ كلّ شيء مركّب منها: النّار والماء والهواء والتّراب. وهنالك آخرون، وقد أعمى بصيرتهم الجهل، راحوا في عَمَههم يرفعون الهياكل والمعابد الفخمة بموادّ ثمينة، ويجعلون فيها أصنام آلهتهم، وأنصابًا لبشر يُحيون ذكراهم، ويبكون موتاهم الّذين جعلوهم في مصفّ الآلهة وتجرّأوا على تكريمهم بالتّقادم والمُحرقات. ما أكثر ما في العالم من أُناسٍ ينسبون إلى عناصر الطّبيعة المجد الّذي لا يليق إلاّ باللّه دون سواه: والكلدانيّون كانوا أشدّ الشّعوب هدفًا لمثل هذه الاتّهامات، هم الّذين يضبطون بدقّةٍ فائقة حركة الكواكب، ويجدون في طيران الطّيور مادّة عِرافتهم.

العبرانيّون

إيمانُ إبراهيم

٢٢. ولكنّ إبراهيم الإلهيّ خالف موقف هؤلاء النّاس الحمقى: أبى أن يجعل في مرتبة المرئيّات والمحسوسات الطّبيعةَ الإلهيّةَ الّتي تفوق كلّ شيء. ولم ينزلق كذلك عن الحقيقة فيزجّ هذه الطّبيعة الإلهيّة في عالم الخليقة، بل رفعها، وجعلها فوق كلّ ما دُعيَ إلى أن يكون، وحصل بذلك على إعجابٍ استحقّه، ونال حُظوة عند اللّه الّذي دعاه وتراءَى أخيرًا له.

فلنُلْقِ نظرةً على التّعليم الّذي يبدو لنا أنّ أبانا إبراهيم قد علَّمهُ؛ ولنَرَ بعد ذلك مَن مِن خلفائه كان ذا كِفايةٍ للتّعبير عن العقيدة الإيمانيّة الّتي كانت فيه. قد يكون موسى، في نظري، المثال الأوفى في الموضوع: كان من ذرّيّة إبراهيم، وقد اعتنق الآراء الّتي عرفها له، ونقلها بالكتابة.

... إله واحد خالق السّماء والأرض

٢٣. هكذا عندما وضع سفر التّكوين روى أنّه بعد خراب سدُوم، وفيما كان المهاجمون الّذين أَسَروا لُوطًا وعددًا كبيرًا من الرّجال، يحتفلون بالنّصر في أُبّهة واعتزاز، فاجأهم إبراهيم بهجومٍ خيّب آمالهم، وتغلّب عليهم وأنقذ الأسرى[١٧]! وفيما كان، بعد ذلك، عائدًا من ملحمة الملوك الخمسة (على حدِّ قول الكتاب) عرض عليه كَدُرْلاعُومر ملك سدوم[١٨] العرضَ التّالي قائلاً: «أَعطني النُّفوسَ والمالَ خُذهُ لكَ[١٩]». فساءَه العرض وكره أن يكون مالُ الغير مكافأة للمآتي الّتي أتاها. وصاحَ قائلاً: «رفعتُ يديّ إلى الرّبّ الإله العليّ مالكِ السّماواتِ والأرض، لا أَخَذْتُ خيطًا ولا شِراكَ نعلٍ من جميع مالك لئلاَّ تقول أنا أَغْنَيتُ إِبراهيم[٢٠]». بعد ذلك توَّجَهُ على أنّه المُنتصر. وملك شليم، أي ملكيصادق، باركه قائلاً: «مُباركٌ إبراهيم من اللّه العليّ مالكِ السّماوات والأرض، وتبارك اللّه العليّ الّذي دفع أعداءك إلى يديك[٢١]». وعندما أرسل إبراهيم أحد أصدقائه، أو أحد خدَمه المُخلصين إلى ما بين النّهرين ليختار لإسحاق زوجة، قال: «أستَحْلِفك بالرّبّ إله السّماء وإله الأرض[٢٢]». وهكذا

---

(١٧) تك ١٤: ١ – ١٦.

(١٨) كان كدرلاعومر ملك عيلام لا ملك سدوم (تك ١٤: ٦).

(١٩) تك ١٤: ٢١. (٢٠) تك ١٤: ٢٢ – ٢٣.

(٢١) تك ١٤: ١٩ – ٢٠. (٢٢) تك ٢٤: ٣.

فإبراهيم الإلهيّ لم يعرف إلاّ إلهًا واحدًا، وقد اعترف بوجوده في عير لُبس؛ وكان يدعوه العليَّ، خالق كلّ شيء في السَّماء وعلى الأرض.

٢٤. وهذا السّموّ لا يقع تحت الحواسّ، ولا يُتصوَّر محصورًا في مكان، ولا يتقبّل غلافًا جسديًّا؛ إنّه في هيمنة عُليا وعامّة تليق بكائنٍ إلهيّ، في العمل الخلاَّق لكلّ ما في السّماوات وعلى الأرض، للفلكِ نفسه وللأرضِ (بمعنى أنّها أحد العناصر). فإذا كان كلّ شيءٍ صادرًا عن اللّه كان اللّه بالضّرورة مُغايرًا لجملة الأشياء المخلوقة، ومختلفًا عنها بالطّبيعة، إذ لم تكن له ولادة، ولم يأتِ من العدَم؛ لم يخضع للولادة، أزليّ وسابق لكلّ زمن، إنّه في الحقيقة مبدأ الكون والكائنات. إبراهيم الإلهيّ، كما أسلفتُ القول، كان يعلم العلم اليقين بوجود إله واحد، وله، لهُ وحده، كان يقدّمُ عبادةً صافية، خالية من كلّ شائبة؛ ولكنّه، بعدما صقل عقله الزّمن، وتقدّم في إدراك الحقائق التي لَمسها جيّدًا، أخذت صورة الأُلوهة تنجلي له بدقّة.

... اللّه ثالوث: معرفة رمزيّة

لم يكن ليكتفي بمعرفة أنّه لا يوجد إلاّ إلهٌ واحد، وأن لا وجود لآخَر سواه. وقد علم أيضًا أنّ ملءَ الطّبيعة الواحدة البعيدة عن الشّرك يمكن تصوّرهُ في الثّالوث الأقدس الواحد الجوهر؛ كان يبلغه ذلك من خلالِ صُورٍ، أو قُلْ من خلال ثوابت حسّيّة.

ما السّبب في ذلك؟ السّبب هو أنّ مَن دُعوا إلى معرفة الحقيقة، ولم تكن نفسهم مهيّأةً لتأمُّلها، يَبدون غير قادرين، وهم بالفعل غير قادرين أن يتحمّلوا سطوع نور الرّؤية الإلهيّة. معرفة طبيعة كهذه تقتضي نفسًا عالية، متمرّسة، ممهورة بنظرٍ حادّ، نفسًا عامرة بالإيمان: أليس الإيمان

أساسًا وركيزةً راسخة لكلّ ما يمكن قوله عن الألوهة؟ أشعيا النّبيّ يُثبت ذلك بقوله: «وأنتم إن لم تصدّقوا فلن تثْبتوا[٢٣]».

٢٥. على كلّ حال، لا بُدّ للنّفوس الّتي لم يَطُل زمن احتكاكها بمثل هذه التّصوُّرات الدّقيقة ولم يصقلها استئناسها بها – أعني التّصوُّرات المتعلّقة باللّه – من إيصالها إلى المعرفة عن طريق الرُّموز؛ ومن يشكّ في الأمر، وحكماءُ اليونان أنفسُهم لم يُنكرِوهُ؟ ففُرْفيريوس ذو الشّهرة الواسعة عند اليونانيّين في حقل الثّقافة، يقول بإيجاز في القسم الأوّل من كتاب التّاريخ الفلسفيّ، متحدّثًا عمّن يدعونهم حكماء – أي أولئك الّذين صبغوهم بشهرة الحكمة: «عندما عجزوا بالكلام عن العَرْض الواضح والدّقيق للصُّور الأولى والمبادئ الأولى، بسبب صعوبة تصوّرها والتّعبير عنها، عمدوا إلى الأعداد، لأنّها مادّة تلقين واضحة؛ وبذلك درجوا على خطّة جماعة الهندسة ومعلّمي المدارس. فعندما يريد هؤلاء أن يصفوا خواصّ أصوات الألفاظ والأصوات ذاتها يعمدون أوّلاً إلى صورتها في الكتابة ويمثّلونها في تلك الصّورة، ثمّ يبيّنون أنّ الألفاظ المكتوبة ليست الأصوات، وأنّه من خلالها تنشأ فكرة الأصوات الحقيقيّة؛ وجماعة الهندسة كذلك الّذين لا يستطيعون أن يجسّموا بالكلام الحقائق غير الجسميّة يعمدون إلى رسم الأشكال ويَدْعون أحدها مُثلَّثًا؛ وإذ كانوا لا يدّعون أنّ ما تُبصره العين مُثلَّث في الحقيقة، قدّموا عنه ما يقارِبُه فتنشأ من هذه المقاربة الصّورة الذّهنيّة المجرّدة للمثلّث. والفيثاغوريّون عمدوا إلى هذه الطّريقة في شأن الصُّور الأولى والمبادئ الأولى: عندما عجزوا عن تجسيم الحقائق غير الجسميّة والصُّور الأوَّليّة بألفاظ الكلام عمدوا

(٢٣) أش ٧: ٩. قد تكون الترجمة الّتي اعتمدها كيرلُّس غير الّتي تؤدّي تمامًا المعنى الّذي أراده النّبيّ.

إلى إبرازها بالأعداد؛ وهكذا فتصوُّر الوحدة، تصوُّر الإنّيّة والمساواة، علّةُ تجانسِ الكون وتآلفه، وصيانة ما يبقى دائمًا متساويًا في ذاته في الأحوال الواحدة، كلّ ذلك دَعوهُ الواحد».

٢٦. وهكذا فبما أنَّ من الصّعب وصف خصائص اللاّهوت وميزاته وتفسيرها، ومن المُستعصي رصدُها، وبما أنّ ما نستطيعُ قوله يظلّ واهيًا ودون مستوى الحقيقة، فإنّنا نعمد لمعرفتها إلى الرّموز والصُّور ما أمكنها النُّطقُ والتّعبير، تلك في نظرنا التّنشِئة التي نُشِّئها إبراهيم الإلهيّ والّتي كُتِبَ عنها: «تجلّى له الرّبّ في بلُّوط مَمرا وهو جالس ببابِ الخِباء عند احتدادِ النّهار، فرفع طرْفهُ ونظرَ فإذا ثلاثةُ رجالٍ وقوفٌ أمامه؛ فلمّا رآهم بادرَ للقائهم من باب الخِباء وسجدَ إلى الأرض، وقال: «يا سيّدي إن نلْتُ حُظوةً في عينيك فلا تَجُزْ عن عبدك[٢٤]». وبعد قليل: «ثمّ قالوا: أينَ سارةُ امرأتُك؟ قال: هي في الخِباء. قال: سأرجع إليك في مثل هذا الوقت من قابلٍ ويكونُ لسارةَ امرأتِك ابن[٢٥]».

وهكذا نرى أَنَّ الكتاب يقول بوضوح أنّ اللّه تجلّى لإبراهيم، ولكنّ الأشخاص الّذين رآهم كانوا ثلاثة؛ وعندما أسرع إبراهيم الإلهيّ للقائهم صاح غير مخاطبٍ ثلاثة أشخاص وقائلاً: «يا أسيادي إن نلتُ حظوة في أعيُنكم فلا تجوزوا عن عبدكم»، بل قال: «يا سيّدي» مستعملاً المُفرد لمخاطبة الثّلاثة؛ وقد طلب إليهم أن يتوقّفوا عنده وكأنّه يخاطب فيهم مخاطَبًا واحدًا؛ وكذلك عندما قال الأشخاص الثّلاثة: «أين سارةُ امرأتك؟» وفي الجملة التّالية جاء فعل القول بصيغة المُفرد. وهكذا فالأشخاص الّذين ظهروا لإبراهيم ثلاثةٌ، وكلّ واحد منهم موجود بأقنوميّته الخاصّة، والثّلاثة موحّدون في الجوهر، ومُظهِرون هذه الوحدة في كلامهم.

---

(٢٤) تك ١٨ : ١ – ٣.
(٢٥) تك ١٨ : ٩ – ١٠.

مضمون العقيدة الثّالوثيّة – إسحق ويعقوب

٢٧. الصُّور الّتي تترجم أحداثًا من هذا النّوع شبه غامضة، وهي أضعف من أن تُقدِّم الحقيقة؛ وهي مع ذلك ذاتُ جدوى من شأنها أن تقودَنا إلى الحقائق الّتي تعتاص على الإدراك والتّعبير. وعلى كلّ حال فألَق رؤية اللّه يخترق النّفوس الأشدّ نقاءً وصفاءً، وكلّ شيء يجري وكأنّنا ننطلق من العالم الحسّيّ إلى ما وراءَ الحسّ، إلى حقيقةٍ فوقَ مُتناوَل كلامنا الّذي نقوله. وهكذا فالجميع متّفقون على أنّ الأُلوهةَ واحدة، فوق الجميع، وفي الجميع، وأنّها، في نظر العقل تتّسع لثالوثٍ مقدّس، واحد الجوهر، أعني الآب والابن والرّوح القدُس. إنّه وإن كان لكلٍّ من هذه الأقانيم وجوده الأقنوميّ الحقيقيّ فوحدة الجوهر تجمعهم في طبيعة خالية من كلّ اختلاف؛ فالابن مولود من الآب، وموجود فيه، ومنبثق منه بالطبيعة؛ والرّوح منبثق منه أيضًا، وهو روح اللّه الآب، كما هو روح الابن: به يقدّس الآبُ كلَّ من دُعي إلى القداسة. هكذا لم يَفُت أبانا إبراهيم أن يعترف باللّه الثّالوث، صانع الأرض والسّماء والكون، الّذي له على كلّ شيء هيمنة وسلطان. ولم يكن نسلُه، أعني إسحق ويعقوب، على غير هذا الرّأي: لقد اتّبعا خطّ فضيلة أبيهما وجدّهما، ونافساه في الإيمان. الطُّوباويّ موسى الّذي يُطلعنا على أخبارهما في سفر التّكوين يروي أنّ إله الكون تراءَى ليعقوب وقال له لكي يشدّده في آماله: «أنا الرّبُّ إله إبراهيم أبيك وإلهُ إسحق[٢٦]». ويعقوب نفسُه أعلنَ إيمانه قائلاً: «إذا رزَقني اللّه خُبزًا آكلُهُ وثوبًا أَلبَسُه يكونُ الرّبُّ لي إلهًا[٢٧]».

---

(٢٦) تك ٢٨: ١٣.

(٢٧) تك ٢٨: ٢٠ – ٢١.

إيمان موسى الثّالوثيّ – الخَلْق

٢٨. كفى الكلام في شأن هؤلاء، وإنّي أرى الآن من الموافق أن أتحوّل إلى موسى الإلهيّ نفسه.

إنّه هو أيضًا يعترف بوجود إلهٍ واحدٍ في الطّبيعة وفي الحقيقة، بدون أن يُنكر من وُجد كلُّ شيءٍ به، أعني الكلمة، الأُقنوم الإلهيّ الحيّ، والرّوح المُحيي الّذي في اللّه ويأتي من اللّه، ويتّصل بالخليقة عن طريق الابن. قال موسى: «في البدء خلقَ اللّه السّماوات والأرض[٢٨]»؛ وكأنّي به يوجز بهذه العبارة عمل اللّه على أنّه صانع الكون، ويُفصِّل ذلك مُظهرًا أنّه بفعل كلمة اللّه الحيّ، السّيّد المُطلق، وُجد ما لم يكن موجودًا بعدُ، وهو يحيا بالرّوح. لقد كتب موسى: «قال اللّه: ليكُن نورٌ فكان نور[٢٩]»؛ «وليكُن جلَدٌ في وَسْط المياه فكان كذلك[٣٠]». وفي خَلْق كلّ شيء نرى الآب يقول: «فليكن هذا، وليكُنْ ذاك»، فيكون كلّ ما يُريد بفعل كلمته، وبدون أيّ مُهلة «إنّ كلمة اللّه حيّة فعّالة[٣١]»؛ إشارةٌ منه ويكونُ ما لم يكُنْ. وموسى يقول أيضًا: «كانت الأرض خاويةً خاليةً وعلى وجه الغمر ظلامٌ وروح اللّه يُرِفُّ على وجه المياه[٣٢]». إنّه يُشير إشارة واضحة إلى الآب والابن والرّوح القدس؛ إنّه يُعلن بأُسلوب آخر الألوهة واحدةً في الطّبيعة والحقيقة في ثالوثٍ مقدّس وواحد الجوهر. وعندما رمى اللّه أهل سدوم بالنّار لما أتَوهُ من القبائح كتب: «أمطر اللّه على سدوم كبريتًا ونارًا من عند الرّبّ[٣٣]».

---

(٢٨) تك ١ : ١.
(٢٩) تك ١ : ٣.
(٣٠) تك ١ : ٦.
(٣١) عب ٤ : ١٢.
(٣٢) تك ١ : ٢.
(٣٣) تك ١٩ : ٢٤.

خَلق الإنسان على صورة اللّه ومثاله

٢٩. إليكم هذا المقطع أيضًا، فإنّي أرى من المفيد جدًّا لَفْتَ نظر القارئ إليه؛ ففي شأن خلق الإنسان كُتب: «وقال اللّه: لِنصنعِ الإنسان على صورتنا كمثالنا[٣٤]». وبُعيدَ ذلك: «وخلقَ اللّه الإنسان على صورته، على صورة اللّه خلقه[٣٥]». فصورة اللّه الآب هي الابن الّذي شُكّلنا على مثاله نحن أيضًا في الرّوح، وفي هذا غنًى عظيم للطّبيعة البشريّة الّتي يتألّق فيها جمال خالقها. فماذا إذن يستطيع قوله أولئك الّذين يحاربون آراءنا، ويتظاهرون بالإيمان معترفين معنا بوجود إلهٍ واحد أوحد، ورافضين الاعتراف بولادته ابنًا؟ إلى أيّ أشخاص قال اللّه: «لنصنعِ الإنسان على صورتنا كمثالنا»؟

ألا نلمس في هذا كلّه أنّ الثّالوث الأقدس والواحد الجوهر يوجّه هذا الكلام إلى ذاته نفسها، وكأنّي بموسى الشّديد الحكمة أراد أن يبيّن اهتمام اللّه بخلق الإنسان، وأنه خلقه بعد تفكير دقيق، وكأنَّ هذا الإنسان قد استحقّ لديه نوعًا من قرار خاصّ؟ لا شكّ أنّ التّفكير والشّكّ أو البحث في أيّ موضوع من الموضوعات ليست من شأن العقل الإلهيّ الّذي لا يشوبه خلل أو خطأ؛ فما إن يُقرِّر حتّى يكون ما قرَّر، ويكون كاملاً لا يقبلُ النّقد؛ ومع ذلك فإنّ الطّبيعة البشريّة استحقّت، على ما قلت آنفًا، نوعًا من قرارٍ تمهيديّ.

أنصاف الآلهة عند المُلحدين

٣٠. ولكن علينا أن لا نُغفِل حُججَ المُلحدين، فبإمكانهم أن يردُّوا قائلين: «لا، ليس الأمر كما تقول وتعتقد، فالآب لم يتكلّم عن كلمته

---

(٣٤) تك ١ : ٢٦.   (٣٥) تك ١ : ٢٧.

الخاصّ وروحه، بل عن الآلهة الثّانويّين والصِّغار الّذين كانوا معه»! هنالك أمرٌ لا يقبل الشّكّ، وجميع من تمرّسوا بالفلسفة اليونانيّة يتّفقون على القول بوجودِ إلهٍ واحد، صانع الكون، وبطبيعته سامٍ على كلّ شيء، إله خلقَ وأوجد آلهةً آخرين «يعقلهم العقل وتدركهم الحواسّ» على حدّ قولهم.

أفلاطون يقول بإله خالق واحد

أفلاطون مثلاً كتب في غير لَبْس وقال: «أرى أنّه يجب أوّلاً التّمييز ما بين الكائن الأزليّ غير المولود، والكائن الّذي يُولَد ولكنّه لا يبلغ ملء الوجود؛ الأوّل هو موضوع المعرفة العقليّة، لأنّه يثبتُ أبدًا على حاله؛ أمّا الثّاني فهو موضوع الرّأي مشتركًا مع الحسّ غير المعقول، إذ إنّه يولد ويموت ولا ينعم أبدًا بملءِ الوجود». «الكائن الأزليّ غير المولود»: بهذا الكلام يعني أفلاطون الطّبيعة السّامية المنزّهة عن الخلق، أيّ إله الكون، الإله الحقيقيّ؛ وبهذا المعنى يخاطب اللّه موسى كليم اللّه قائلاً: «أنا الكائن[٣٦]». أمّا الكائن الّذي يولد ولا يبلغ أبدًا مِلْءَ الوجود، فهو الّذي أُخرج من العدَم إلى الوجود بقدرة اللّه الّتي لا توصف ولا تُتَصوَّر والّتي صنعت كوننا. هنالك إذن حقيقة ثابتة، وقد بيَّنْتُ بوضوح لا من خلال كتُبنا المقدّسة وحسبُ، ولكن من خلال ما راق لليونانيّين أن يُخلِّفوه أيضًا من أفكار وكتابات، أنّ كلّ شيء وُجِدَ بقدرة اللّه ذي الطّبيعة المختلفة عن طبيعة البشر؛ وهكذا فالخليقة خاضعة للخالق، وهي في جميع الأحوال ذاتُ طبيعةٍ دون طبيعةِ الخالق.

ردٌّ على جماعة أنصاف الآلهة

٣١. عند هذا الحدّ من حجاجنا في الموضوع ماذا يدور في خَلَدِ هؤلاء

---

(٣٦) خر ٣: ١٤.

الّذين تخيّلوا إله الكون يقول لآلهة آخرين: «لنَصْنع الإنسان على صورتنا كمثالنا»؟ فإذا كان اللّه قد أراد أن يصنع الحيوان الأرضيَّ ذا العقل على صورة المخلوقات، فلماذا يمهرهُ بصورته الخاصّة قائلاً: «لِنَصْنعهُ على صورتنا»؟ وإذا كان يرى أن يصعنه على حسب بهائه الإلهيّ، وعلى حسب هذا البهاء دون سواه، فلماذا يرضى التّمثّل بغيره، أو الاهتمام بشكله - ما لم يكن هناك أسلوب أفضل للكلام في هذا الموضوع؟ وإنّه لمن غير المقبول أن يُنسب نفس الطّبيعة والرِّفعة والمقام إلى الخالق والخليقة، إلى كائن خاضع للولادة وإلى آخر غير خاضع لها، إلى كائن لا يناله زوال وآخر زائل - وذلك إذا صحّ أن يُقال إنّه، في كلّ حال وفي شتّى المجالات، ما عُدّ خاضعًا للولادة لا بُدّ له أيضًا من الخضوع للدّمار.

جواب موسى المُسْلَف: ليس في اللّه غيرة

٣٢. إنّ موسى الإلهيّ الّذي كان يرى المستقبل بوحيٍ من الرّوح القدس، أجاب سلفًا عن الأسئلة التي نتساءَلها، وإليكَ كيف: بما أنّنا في الآب والابن والرّوح القدس، أي في الثّالوث الواحد الجوهر، نتمثّل طبيعة اللّه الواحدة الممتنعة عن الوصف والتّصوُّر، فقد حرص على أن لا يندفع أحدٌ بدافع الجهل والغباء، إلى التّهوُّر، ويقول إنَّ الإنسان صُنع على صورة اللّه ومثاله لا على صورة الابن (ومن الممكن عكس الكلام والقول إنّ الإنسان صُنع على صورة الابن لا على صورة الآب...)؛ ولكي لا ينشأ تصوُّر غريب في عقول بعض النّاس بادر موسى إلى القول بأنّ الثّالوث الأقدس خاطب ذاته قائلاً: «لِنَصْنع الإنسان على صورتنا كمثالنا»، وذلك لكي يُبيّن أنّ الإنسانَ صُنع - في نفسه - على مثال الطَّبيعة الإِلهيّة الكاملة الّتي تفوق الوصف. إلاّ أنَّ خصومنا، مع كلّ ما

هم عليه من علم زائف، يعدّون هذه الأقوال ثرثرةً، وبسبب ضياعهم الكامل الّذي أعمى بصائرهم عن نور الحقيقة، يدّعون أنّ صوت اللّه كان متوجّهًا إلى آلهة نُغُولٍ لا يستحقّون اسمهم. ومع ذلك فكيف لا نتوقّف ونُفكِّر في أنَّ الكائن الأعلى الّذي من طبيعته الخَلْق لم يمهر الخلائق الخاضعة للولادة بالرُّتبة السّامية المتعلّقة بمجده الخاصّ، بسموّه الخاصّ؟ لا ندّعي أنّ ذلك كان عن غيرة (وأنّى له هذه الغيرة؟): السَّبب في ذلك هو أنّ طبيعة الأشياء المخلوقة لا يمكنها أن تبلغ سموّ الكرامات الإلهيّة، ولا أن – على ما أعتقد – تحصل، في موضوع الجوهر، على الغنى القائم، في المُطلق، على الطّبيعة الإلهيّة دون سواها.

... ولا عجز

٣٣. ومن ناحيةٍ أُخرى لم يكن من المعقول الذَّهابُ إلى أن يقول ملك الكون وسيّدُه لآلهةٍ آخرين: «لنصنع الإنسانَ على صورتنا كمثالنا». ماذا يكون قد حلَّ به من السُّوء لو شوهِدَ مستعينًا بأعوانٍ ومُساعدينَ لخلقِ الإِنسان، بعدما خلق كلّ ما سواه أعني الملائكة والقوّات، والرّئاسات، والسّلاطين، والقوى الرُّوحيّة، والسّماء والأرض، والشّمس والقمر، والكواكب والنّور، وبوجيز الكلام كلّ ما في السَّماوات وعلى الأرض؟ هل يُقال إنّه شعر بالعجز أو بالحاجة إلى من يمدّه بالقوّة فضمّ إليه أعوانًا ومساعدين؟ ولكن كيف الهروب من الاتّهام بالحماقة عند الأخذ بهذا التّفسير؟ فالإلهيّ كلّيّ القدرة، وله في ذاته الكفاية الكاملة لكلّ حالٍ من الأحوال، ولا شيء يستعصي عليه. وَلْندعِ الهذَيان في هذا الموضوع وَلْنعُد إلى مجالٍ آخر أعني الاعتراف بأنّ ملء اللاّهوت قائم في الثّالوث الأقدس الواحد الجوهر؛ وأنّنا صُنِعنا على صورة الآب الحقيقيّة والدّقيقة

الّتي هي الابن، وأنّ جمال الآب الإلهيّ ينطبع في نفوسنا بالرّوح القدس، لأنّ الرّوح فينا كما أنّ الابن نفسه فينا: «والرُّوح هو الحقّ[٣٧]» على ما ورد في الكتاب.

تقليد تعليم موسى اللاّهوتيّ

٣٤. في هذه الحقيقة أدخَلنا موسى الحكيم، وجميع الّذين تعاقبوا بعده من أنبياء، ورُسُلٍ وإنجيليّين، لم يحيدوا عن تعليمه؛ وإنّنا نجد عند جميع هؤلاء الأشخاص طريقة لاهوتيّة واحدة، ولا نراهم على خلاف في أيٍّ من القضايا. إنّهم كانوا في الحقيقة يُصْغون إلى اللّه، وكانوا يستمدّون ما يقولون من الرّوح القدس دون سواه، وسيّدنا يسوع المسيح لا يدع لنا في هذا الموضوع مجالاً للشّكّ إذ يقول لهم بصراحة: «لَسْتم أنتم المتكلّمين بل روح أبيكم هو يتكلّم فيكم[٣٨]». ولدينا، من عند اللّه العليّ ومن تُراث آبائنا القدّيسين، تعليم لاهوتيّ غنيّ وخَيِّر نفخَر به، ولسنا على استعداد للتّخلّي عنه لبني إسرائيل بحُجّة أنّهم أَولى به منّا. إنّه لنا نحن المعدودين من أبناء إبراهيم؛ نحن أبناؤه بحسب الموعد، ونجد إثباتًا لذلك في ما يقوله بولس: «إنّ جميع الّذين من إسرائيل ليسوا بإسرائيل، ولا لكونهم نسل إبراهيم هم كلُّهم أولادٌ لإبراهيم... بل إنّما أبناءُ الموعد يُحسَبون نسلاً[٣٩]».

ليس من الصّعب الإفاضة في الموضوع، وإضافة الكثير من الأمور إلى ما قلنا عن ديانتنا المقدّسة وعن العقيدة الصّافية الّتي عقدناها في موضوع اللّه الكلّيّ القدرة. ولكن بما أنّنا درجنا على خطّة فنّيّة تقضي منّا أن نضع حدًّا مناسبًا لكلّ نظريّة من نظريّاتنا، فإنّنا سندع هذا الموضوع ونتحوّل

---

(٣٧) ١ يو ٥: ٦. (٣٨) متّى ١٠: ٢٠. (٣٩) رو ٩: ٦ – ٩.

إلى الكلام على اليونانيّين، ودراسة آرائهم، ونتخيّل نظريّة كلّ مفكّر من مفكّريهم.

اليونانيّون

فكرة اللّه عند المفكّرين اليونانيّين: أورفَه

٣٥. أُورْفَه بن إِياغْرُس يُعَدُّ أشدَّ النّاس تديُّنًا في تاريخ البشر. قيلَ إنّه سبَق الشِّعر الهوميريّ (فهو تاريخيًّا سابق لهوميرُس)، وبنظمه أناشيد وترانيم للآلهة حاز شُهرةً عجيبة؛ ثمّ إنّه تنكّر لمعتقداته وخشيَ أن يكون بتحوُّله عن الجادّة قد ضَلَّ الطّريق القويم، فعاد إلى نفسه يفكّر في الأمور تفكيرًا أقومَ، وآثر الحقيقة على الكذب؛ إليك ما يقوله في اللّه:

«إنّي أخاطب من يملكون حقَّ السَّماع؛ صُمُّوا آذانكم
جميعًا أيّها الجُهَّال! إستمع أنتَ يا ابن مينس القمر اللاّمع،
يا عبقر! لأنّني سأُعلن الحقيقة. لا تدع الظّاهرات،
الّتي كانت تملأ قلبك سابقًا، تُفقِدك حياتك!
مِلْ بناظِرَيْكَ إلى الكلمة الإلهيّة، وأقبِلْ على اتّباعها؛
وَجِّه إليها غلاف قلبك التّفكيريّ؛ أُسلكِ الطَّريق الصَّحيح،
وتأَمَّلْ ملك الدُّنيا الوحيد: إنّه واحدٌ، مولودٌ من ذاته؛
كلّ الأشياء تصدرُ عنه، وهو فوقها جميعًا؛ لا أحد من البشر يراه، وهو يرى الجميع».

وبعد قليل يقول:

«إنّه ثابتُ الإقامة في السّماء النُّحاسيّة، على عرش من ذهب،

ورجلاه على الأرض. وهو يبسط يمينه من كلّ جهة إلى
حدود الأوقيانس، ومن حواليه ترتعدُ خوفًا الجبالُ العاليةُ
والأنهار وأغوار البحر الأزرق».

وهكذا فالشّاعر يقول بإلهٍ واحد، إلهٍ وُلد من ذاته، يجلس بين جميع الأشياء وجميع الكائنات وفوقها؛ يجعل عرشه في السّماء، والأرض تحت قدميه، وبذلك يُشير، في رأيي، إلى لا محدوديّة طبيعته الطّاهرة، وإلى أنّ هذه الطّبيعة تخترق كلّ شيء وتملأهُ؛ وهو يغمرُ الكون في نفسه، وهذا ما توحي به يده المبسوطة على حدود الأوقيانُس نفسها، فيما ترتعِد الجبال والبحر، أي العالم كلُّه؛ وقد جاء في الكتاب الّذي أوحى به اللّه: «الأرض كلّها تهذُّ بالحقيقة، والسّماءُ تباركها، الخليقة كلّها ترتعدُ مُضطربة». نكتفي بهذا القدر من الكلام على أورفَه.

هوميرُس

٣٦. يُمكننا القول، على ما أظنّ، بأنّ هوميرس، أمير الشعراء، لم يكن بعيدًا عن راقصي المسارح: هؤلاء الرّاقصون، على حدّ قول المتهافتين على هذه المشاهد، كثيرًا ما يمثّلون بحركات أجسامهم وإيماءَاتهم الحقائق الطَّبيعيّة، وكأنّي بهم يستحضرونها لنظّارتهم؛ وقد عُنيَ هوميرس أن يؤلِّه الفضائل والرّذائل، فضلاً عن أقسام المسكونة وطبيعة العناصر نفسها. وهكذا عندما روى أنّ الآلهة قديمًا تجابهوا في طروادة، بيّن بوضوح من هم هؤلاء المتخاصمون:

على الرّبّ بوسيدون نهض فيبُس أبولّون بسهامه
المجنّحة؛ وعلى آريس أنياليوس نهضت أثينا الإلاهة ذات

العينَيْن الخضراوين؛ وعلى هيرا نهضت أرتيميس ذات
المغزل الذهبيّ الّتي ترسل سهامها في حومة الصَّيد، شقيقة
الإله الّذي يرمي في البعد؛ وعلى ليتس
نهض هرمس القويّ والخدوم؛ وعلى هيفاستُس النّهرُ
الكبيرُ ذو الدَّرادير العميقة».

نلمس في هذا المقطع ما يبذله الشّاعر من جهد ليُظهر على طريقته الصّراع القائم ما بين الرّذائل والفضائل. كثيرًا ما ينعت الشّعراء اليونانيّون آريس بالأخرق، بالمجنون الهائج، السّريع التّقلُّب؛ وأثينا بالماكرة والخدّاعة؛ وليتس بالشّديد النّسيان؛ وهرمس بالشّديد التّذكّر وصحّة العقل.

لنواصِل البحث متتبّعين هوميرس في نظرته التّجريديّة إلى الطّبيعة عندما يعرض الاختلافات الّتي تُنهض العناصر بعضها على بعض:

على الرّبّ بوسيدون ينهض فيبس أبولّون بسهامه
المجنّحة؛ على هيرا الإلاهة ذات المغزل الذّهبيّ هاوية الصّيد...
وعلى هيفاستُس النّهر الكبير ذو الدّرادير العميقة».

يبدو لي أنّ الشاعر يدلّ هنا بالاسم بوسيدون على المادّة السّائلة، وبالاسم أبولّون على الشّمس، وبالاسم هيرا على الهواء؛ أمّا الإلاهة ذات المغزل الذّهبيّ هاوية الصّيد فهي القمر، وأمّا هيفاستُس فهو النّار؛ وقد أُشير بالنّهر إلى البَرْد.

٣٧. ولئن عمد هوميرس إلى الميثة في كلامه فإنّه، في نظرنا، لم يبتعد كثيرًا عن الحقيقة؛ وقد قال في ما قال:

«لا! حتّى إذا التزم اللّه نفسه أن يمحو عنّي الشّيخوخة، ويعيد إِليّ الشّباب والقوّة...».

لا يقول الشّاعر: «إذا وعدني إلهٌ بإزالة الشّيخوخة وإعادة الشّباب...» بل إنّه يخصّ اللّه بهذا العمل، اللّه الواحد إله الكون، مُسندًا إلى قُدرته تغييرَ الأمور حتّى تلك الّتي لا تقع في نطاق مأمل البشر وإدراكهم. إنّه يقول: «حتّى إذا التزم اللّه نفسه»... فالتّعبير «اللّه نفسه» لا يصحّ إرجاعه إلى أحد آلهة الأسطورة، بل إلى اللّه الحقيقيّ وحده.

تلك كانت أساليب التّفكير والقول الّتي كان هوميرس يستأنس بها. وَلننتقل الآن إلى الأشخاص المتغطرسين والشّامخي الأنوف الّذين شاعت شهرتهم الفلسفيّة عند أبناء اليونان.

مواقف الفلاسفة اليونانيّين

٣٨. فُرفوريوس الّذي صبّ علينا تصريحاته اللاّذعة، والّذي كاد يقوم برقصة السُّخر أمام الدّيانة المسيحيّة، يعرض على الوجه التّالي السَّبب الّذي لأجله ادّعى من أُطلق عليهم اسم الحكماء – وكانوا سبعة – أنّهم هكذا: «كانوا تسعة (على حدّ ما روى في القسم الأوّل من كتابه «التاريخ الفلسفيّ»، وإليك السَّبب الّذي لأجله دُعي سبعةٌ منهم «حُكماء». صيّادٌ باع من بعض الشُّبّان ما علق في شبكته من الأسماك، وحدث أنّ ركيزةً من ذهب وُجدت في الشبكة، فادّعى الصّياد أنّه باع السَّمك لا الرّكيزة، وادّعى الشُّبّان أنّها من نصيبهم وحظّهم، فاتّفقوا على رفع القضّية إلى الآلهة. فأقرّت الآلهة بصوتِ وسيط الوحي أن تُعطى ركيزة الذّهب «للحكيم»؛ فحُمِلت الرّكيزة أوّلاً إلى طاليس، فأرسلها طاليس إلى بياس على أنّه هو الحكيم، فأرسلها بياس إلى آخر، وأرسلها هذا الآخر إلى

غيره بحيث إنّ الرّكيزة تداولها سبعة أشخاص، وفي آخر الأمر عادت إلى الشّخص الأوّل منهم؛ فاجتمع الرّأي إذ ذاك على تقديمها للإله على أنّه الأشدّ حكمةً من الجميع».

سنعرض لمذاهب هؤلاء العلماء في وقتٍ لاحق، ولنقُلْ مثلاً أنّ طاليس الميلسّيّ يذهب إلى أنّ اللّه روح الكون؛ وذيموكريتس الأفذيريّ يوافقه في بعض ما يقول، ويُضيف إلى ذلك عنصرًا جديدًا: إنّه يثبتُ هو أيضًا أنّ اللّه روح، ولكنّه يجعل هذه الرّوح في كرةٍ من نار، ويجعلها روح العالم؛ أمّا أنكسيمندرس فيخالفهما في الرّأي ويذهب إلى دمج اللّه في العوالم اللاّمتناهية، ولا أدري عن أيّ طريق وصل إلى هذه الفكرة.

٣٩. إنّ الرَّجل الّذي جعل في خدمة الفكر من المهارة ما أثار الإعجاب، أعني أرسطو السّتاجيري، تلميذ أفلاطون، يدعو اللّه «الصّورة المنفصلة»، ويُثبت أنّه يُهيمن على دائرة الكون؛ أمّا أولئك الّذين يُدعَون راوقيّين فيذهبون إلى أنّ اللّه نار خلاّقة تجدّ في طريق خَلْق العالم. فلوترخس ويونانيّون بارزون آخرون كتبوا في هذا الموضوع، وكذلك فرفوريوس خصمُنا اللَّدود.

أَلَيْسوا على خلافٍ في ما بينهم؟ ألم يستشفّوا الحقيقة إن لم يكتشفوها بالتّحليل، هم الّذين تُسكرهم الآراءُ المُتباينة؟ ومع ذلك فلو كانوا وقعوا على آراءٍ صحيحة وخالية من كلّ ضلال لكان عليهم أن ينبذوا من أفكارهم كلّ مشادّة، كما هي الحالُ الظّاهرة عندنا.

قد يُقال لنا في الموضوع: «مهلاً أيّها الصّديق، أليس عندكم أيضًا عددٌ كبير من الهرطقات والانشقاقات، ذاهبًا كلُّ واحد منكم مذهبَهُ في التّفكير والتّعبير؟» فأُجيب وأقول: أن معلّمينا الأوائل في مادّة العقائد

المقدّسة، أولئك الّذين كانوا منذ البدء، متّفقون جميعًا في ما بينهم، ومُنظّري العهود المتوسّطة والأخيرة لا يحيدون عن خطّ الأوائل. لا يمكن الذّهاب إلى القول بأنّه كان لموسى هيكليّة عقيدةٍ وأنّ من أتوا بعده نادَوا بعقائد مُخالفة لعقائده؛ إنّي أُكرّر أنّ الجميع، قدّيسين ورسلاً وإنجيليّين، عبّروا عن اللّه التّعبير نفسهُ.

مضمون لاهوتهم

٤٠. الجميع يعترفون بإلهٍ واحد، مُهَيْمن على الخليقة كلّها، مُتغلغل وساكن في كلّ شيء؛ لا بدءَ له، أزليّ، غير خاضع للولادة والفساد؛ إنّه الحياة والمُحيي، خالق السّماء والأرض، وبكلمة واحدة خالق كلّ ما فيهما. لَئِن وُجد في سُلالة هؤلاء الأشخاص أُناسٌ خَطِئوا إلى الحقّ عن جهلٍ لِما وَرِثوهُ، فالمتّهمون بالخطأ هم، في رَأي المُنصفين، الخَلَفُ لا السَّلَف. فَلْيُثْبِت ناشرو الضّلال في عالم اليونان، وأَساتذة التّعاليم الكُفريّة، أنّهم على اتّفاق في ما يذهبون إليه، فأتوقّف عن الكلام. ولكن إذا كان الأوائل في ضلالهم مختلفين، وإذا كانت تصوّراتهم متناقضة، فكيف يمكن رفض هذه الحقيقة الواضحة وهي أنّهم ضلّوا الطّريق القويم وتاهوا في عالم من الأوهام؟ فإذا شئنا أن نتبيّن الحقيقة الصّحيحة عن اللّه المترفّع على كلّ شيء كان علينا أن نبحث عن التّعليم الّذي يُجنّبنا الخروج عن الهدف. عند مَن نجده؟ طاليس وأنكسمندرس، وغيرهما ممّن ذكرنا ذهبت أقوالهم في غير جدوى؛ وفيثاغُورس وأفلاطون اللّذان أقاما زمنًا في مصر، وكانت لهما فيها علاقات وثيقة وعميقة، وهما على ما هما عليه من الرَّغبة في البحث والتّحرّي لم يتجاهلا شخصيّة موسى الفريدة التي كانت تُثير لدى المصريّين إعجابًا قلَّ نظيرهُ: من هنا،

في رأيي، أنّهما أخذا عنه فكرةً عن اللّه لا تخلو من بعض الصّحّة، فكانت لهما في الموضوع تصوُّرات ورؤًى أقرب إلى القبول من تصوّرات غيرهما. وإنّنا سنجد في أثينة بعضَ فلاسفةٍ نهجوا نَهْجهما بعدما لمسوا في تصوّراتهما ومواقفهما ما يروقُ العقلَ ويُرضيه.

هرمس «المثلّث العظمة»

٤١. أظنّ أنّه لا بُدّ من ذكر هرمس المصريّ أيضًا الّذي لُقّب «بالتريسمايستس» أي «المُثلّث العظمة»؛ كان أبناءُ عهده ينظرون إليه نظرة إكبار ويشبّهونه، على ما روى البعض، بالابن الّذي تنسبه الأسطورة إلى زفس ومايا. فهرمس المصريّ هذا، مع كونه كاهنًا وموجّهًا، ومقيمًا في هياكل الوثنيّة، يبدو أنّه كان على علم بتصوُّرات موسى، وإن لم يكن ذلك العلم دقيقًا وشاملاً، وأنّه استقى بعض تعاليمه وكان له منها فائدة وجدوى. وإنّنا نجد إشارة إلى موسى في الكتب الخمسةَ عَشَرَ الّتي وضعها الرَّجُل في أثينة بعنوان «هَرْماييكا»؛ ففي الجزء الأوّل من هذه الكتب يُبرِز كاهنًا ويجعل على لسانه الكلام التّالي: «... وفي موضوع المقارنة، ألا تسمع القول بأنّ مواطننا هرمس قسَّم مُجملَ مصر إلى أقسامٍ وحصص، وقاس الأراضي الزراعيّة بالحَبْلة. وأنّه حفر أقنيةً للرّيّ، وأقام أقضيةً وأقاليم أطلق عليها أسماءً؛ وأنّه صاغ شروط التّعاقد؛ وأنّه وضع جدولاً لطُلوع الكواكب، وعلَّم طريقة جمع النباتات الطّبّيّة، وأنّه أخيرًا عمد إلى الأعداد، والحساب، والهندسة، وعِلْم الهيئة، وعلم التّنجيم، والموسيقى، وقواعد اللّغة، ونقلها إلينا»؟

التعمُّق في التّعاليم اليونانيّة

سآخذ إذن في عرض آراء جميع هؤلاء الأشخاص، مُضيفًا إليهم

غيرهم ممّن نالوا شهرةً واسعة عند اليونانيّين في الحقل الثقافيّ؛ وأرجو من قُرّائي أن يُقبلوا على قراءة هذا العرض المفصّل بعطشٍ إلى المعرفة، وأن لا ينال منهم السّأم والخَوَر.

فيثاغورس

٤٢. هوذا مثلاً فيثاغورس وكيف يُعبّر: «اللّه واحد؛ ليس كما يتصوّرهُ البعض خارج الكون، بل كلّه في داخل الفلك كلّه، وهو يحيط بنظره بجميع الأجيال، جامعًا في ذاته مجمل الأزمان؛ إنّه رونق جميع إمكاناته، وأعماله، ومبدأ كلّ شيء، ومصباح السّماء، وأبو الكلّ، والرّوح المُحيي، ومُحرّك الأكوان». وهكذا يقول فيثاغورس بوضوح إنّ إله الكون واحد، وإنّه مبدأ كلّ شيء، وصانعُ ما يصنع بقدرته الذّاتيّة، وموزّع النّور، ومحرّك الكون – أو قُلْ ينبوع حياته – ومحرّك جميع الأفلاك. وهكذا فلا شيء يتحرّك بذاته، بل به يتحرّك كلّ شيء، ويبدو أنّه يستمدّ منه الحركة الّتي تنقله من اللاّوجود إلى الوجود.

أفلاطون

وأفلاطون يقول من جهته ما خلاصتُهُ: «أمّا في شأن أبي وخالق هذا الكلّ، فمن الصّعب أن تجده، وإن وجدته فمن المستحيل أن تعبّر عنه للآخرين». وهو في ذلك على حقّ: «انّه من مجد اللّه أن يكون التَّعبير عنه مستحيلاً[٤٠]». فكلّ كلام عنه شاحب، ودون عظمته؛ فاللّه يسمو على كلّ تفكير، ولا نُبْصر أمورَهُ إلاّ كما في مرآة، وفي إبهام، على ما يقول الحكيم بولس.

(٤٠) طالع ١ كو ١٣: ١٢.

٤٣. هوذا الآن ما يرويه فرفوريوس في الجزء الرّابع من كتابه «التّاريخ الفلسفي»: «لقد تصوّر أفلاطون وعبّر من جهته عن عقيدة وحدة اللّه. ما من اسم يليق به، وما من علم بشريّ يُحيط به، والتّسميات الّتي يطلقونها عليه انطلاقًا من الكائنات الدُّنيا تدلّ عليه دلالةً غير مناسبة. وإذا كان لا بُدّ لنا من استعمال الألفاظ الّتي في حوزتنا للكلام على اللّه، كان الأولى أن نستعمل اللّفظة «واحد»، واللّفظة «صالح»؛ فبقولنا «واحد» نُبرز البساطة في طبيعته، ومن ثمَّ استقلاليّته الكاملة: فإنّ اللّه ليس بحاجة إلى شيء، سواء كان أجزاءً أو جوهرًا، قوًى أو أعمالاً، فهو الأصل والعلّة؛ وبقولنا «صالح» نعني أنّه مصدر كلّ صلاح وصالح؛ وجميع ما ومن سواه في سعي إلى أن يقتدوا بصفاته ما استطاعوا، وأن يجدوا عنده مأوى أمانهم».

هرمس

هرمس التّريسمايستس (الثُّلاثي العظمة) يُعبّر تقريبًا كما يلي: «تصوُّر اللّه صعب، والتّعبير عنه مستحيل، حتّى لدى من يستطيعُ تصوُّره: إنّه من غير الممكن التَّعبير عن غير الجسمانيّ بالجسمانيّ، وإحاطة غير الكامل بالكامل؛ كما أنّه من العسير التّقريب ما بين الزَّائل والأزليّ، هذا مستمرّ وذاك ماضٍ لسبيله؛ هذا حقيقة، وذاك شبحٌ من خلقِ المخيّلة. بقدر ما يختلف الضّعيف عن القويّ، والأدنى عن الأعلى، يختلف المائت عن الإلهيّ وعن غير المائت. إذا كان هنالك عينٌ غير جسمانيّة، فلتنطلق من الجسد، ولْتَطِرْ لتتأمّل الجمال؛ فلتحلّق، لا لتُبصر الأشكال والأجسام والظّاهرات، بل ما يخلقها، والهدوء، والصّفاء، والثّابت، ما هو في ذاته كلّ شيء، الواحد الّذي هو ذاتٌ من ذات، ذات في ذات، الّذي يثبت على ذاته، الّذي ليس شبيهًا بغيره، وليس مختلفًا عن ذاته».

٤٤. ويضيف هرمس في مكان آخر: «لا تَعُدْ إلى الادّعاء، وأنت تفكّر في هذا الكائن الواحد، في هذا الخير الواحد، بأنّه عاجز عن أيّ شيء: إنّه كمال القدرة. لا تذهب إلى تخيُّله في أيّ شيء، أو خارج أيّ شيء. إنّه بكونه غير محدود، هو حدّ كلّ شيء؛ هو الّذي لا يُحيط به شيء، يُحيط بكلّ شيء. ما الّذي يفصل ما بين الجسم وغير الجسمانيّ، ما بين المولود وغير المولود، ما بين الخاضع للضّرورة والكائنِ سيّدَ ذاته، والأرضيّ والسّماويّ، والزّائل والأزليّ؟ أليس في الحقائق ما هو كامل الاستقلال وما هو خاضع للضّرورة؟ كلّ ما في هذه الدّنيا قابل للزّوال لأنّه غير كامل».

سوفوكليس

لننتقل إلى سوفوكليس ونرَ كيف يتكلّم عن اللّه:

«واحدٌ في الحقائق، واحدٌ اللّه الّذي خلق السّماء والأرض،
وطموّ البحر الضارب إلى الاخضرار، وهبوب الرّياح العاصفة.
نحن، جمهورَ المائتين، صُغْنا في عَمه قلوبنا،
لتخفيف هواجسنا، أصنام آلهة من حديد أو خشب،
أشكالاً إلهيّة من ذهبٍ أو عاج،
وعندما نقدّم لها الذّبائح، ونُنظِّم الاجتماعات،
نتخيّل أنّنا قُمنا بعمل التّقوى».

كسينوفون

كسينوفون الفائق الحكمة كتب في ما كتب: «عظمة وقدرةُ الكائنِ

الّذي يُحرّك كلّ شيء ولا شيء يُحرّكه، تُدركان، ولكنّ صورته تظلّ خفيّة لا يلتقطها النّظر؛ مَثَلُ ذلك مَثَلُ الشّمس الّتي نراها تُنير الكون ولا يُتاح النّظر إليها: من يُغامر ويحدّق فيها يفقد النّظر».

اتّفاق الكتابة المقدّسة وأقوال الكتّاب اليونانيّين

الكلمة الخالق (والرّوح) عرفها أفلاطون (على حدّ قول فرفوريوس)

٤٥. اللّه إذن واحدٌ بالطّبيعة وبالحقيقة، سامٍ على كلّ روح وكلّ عقل، غير متصوَّر، ومُحيٍ؛ مبدأ كلّ شيء، مُنزَّه عن الولادة وعن كلّ فساد، خالق الكون: هذا ما تثبته بوضوح الكتاباتُ الموحى بها، وأقوال الشّعراء والكتّاب اليونانيّين. ولكنّ الابن الّذي ولدَهُ بحسب الطّبيعة، كلمتَهُ الخالق، عرفوه هم أيضًا: هذا ما سنُبيِّنه من خلال كتاباتهم، موردين النّصوص الّتي تتضمّن هذا الموضوع.

هوذا مثلاً فرفوريوس، في الجزء الرّابع من كتابه «التّاريخ الفلسفي» يورد الكلام التّالي لأفلاطون في شأن الخير: «يكون من ذلك نوعًا ما أنّ «الرّوح» خارجٌ تمامًا عن تصوّر الإنسان، أنّه جوهرُ ذاتِهِ، وأنّ فيه وجود الكائنات الحقيقيّ وجوهرها الكامل». وفرفوريوس يعلّق على ذلك قائلاً: «إنّ من هو الجميل الأوّل، الجميل في ذاته، الّذي يستمدّ من ذاته صورة الجمال، برز قبل بدء الزّمان، بتحريكٍ ودفعٍ من اللّه، مولودًا من ذاته، وأبًا لذاته. لم يكن الظُّهور بسبب أنّ الواحد تحرّك لِيُحدث الآخر، بل لأنّ هذا الآخر يصدر عن اللّه بولادةٍ ذاتيّة، من غير أن يكون هنالك صدور عن مبدأ زمنيّ (لم يكن الزّمن بعدُ)، وليس من الممكن

القول بأن الزّمن عندما خُلِق كان حقيقةً بالنّسبة إليه: لم يكن «للرّوح» قطّ علاقة بالزّمن لأنه أزليّ. بما أنّ اللّه هو واحد ووحيد أبدًا ومع أنّ كلّ شيء يصدر عنه، وبما أنّه من غير الممكن جعلُه في مرتبة هذه الأشياء، ولا زيادة جوهره بإضافة قيمة هذه الأشياء إليه، فتلك حال «الرّوح»: إنّه وحده أزليّ قائم في غير زمن، وهو نفسُه زمن الأشياء الزّمنيّة، ويبقى في ذات جوهره الأزليّ».

أورفه

٤٦. وهذا أورفَه من جهته يقول بملء صوته: «أستحلفك باسم السّماء، يا تُحفة اللّه في عظمته، أستحلفُك بصوت الآب الّذي أطلقه في البدء، عندما، بتصميمه الذّاتيّ، أقعد الكون بجُملته على ثباتٍ ورسوخ».

«صوت الآب الّذي أطلقه في البدء»: هكذا يدعو أورفه كلمة اللّه الوحيد، الّذي يوجد مع الآب منذ الأزل؛ اذ لا يمكن أن نتصوّر زمنًا لم يوجد فيه الآب مع الابن! وهكذا أبرز الشّاعرُ اللّه صانعًا للكون.

هرمس

هرمس التّريسمايستُس يتكلّم عن اللّه على النّحو التّالي: «كلمته، الصّادر عنه، الكامل، والخصب، والخالق، سقط بطبيعته الخصبة في الماء الخصب، وجعل الماء «حاملا». وكذلك في مقطعٍ آخر: «فالهرَمُ إذن هو أساس الطّبيعة والعالم الرّوحانيّ، وفوقه يُهيْمِن عليه الكلمةُ خالق سيّد الأشياء كلّها، هذا الكلمة الّذي تليه القدرة الأولى، غير المولودة وغير المحدودة؛ لقد ظهرت منه، وهي تحكم وتدير الأشياء الّتي كوّنها. الكلمة هو بكر الكامل، ابنه الشّرعيّ، التّام والخصب». وردًّا على سؤال وجّهه

إلى هرمس أحد خدّام الهيكل المصريّين قائلاً: «لماذا، أيّها العبقريّ الصّالح، دُعي الكلمة بهذا الاسم من قِبَل سيّد الكون»؟ أجاب هرمس: «قلت لك ذلك في حديث سابق، ولكنّك لم تفهم. إن طبيعة كلمة اللّه الرّوحانيّ هي طبيعة إيلاديّة وخلاّقة. وفي هذا، إذا صحّ القول، تقوم قدرة الكلمة الولاّدة، أو طبيعته، أو ميزته الخاصّة. أدعُ ذلك كما يروقك أن تدعوه، على أن لا يُغفل أنّه كامل في الكمال، وبكماله يحقّق، ويخلق، ويُحيي كمالات صالحة. وإذ كان يملك مثل هذه الطّبيعة حقّ له أن يُدعى بهذا الاسم». وهرمس أيضًا في الجزء الأوّل من كتابه «التّفسير المفصَّل» يتكلّم عن اللّه كما يلي: «كلمة الخالق، يا بُنيّ، أزليّ، متحرّك بحركة ذاتيّة، وهو غير قابل النّموّ، والنّقص، والتّعبير، والفساد. إنّه واحد، دائمًا شبيه لذاته، غير متقلّب، غير متغيّر، ثابت، مُنتظم، وحده موجود بعد الإله الأساسيّ». أظنّ أنّه يشير بهذا التّعبير إلى الآب.

الرّوح في نظر أفلاطون

٤٧. يكفي ما قرأناه للدّلالة على أنّ اليونانيّين أنفسهم تصوّروا فكرة الكلمة، ابن اللّه الوحيد. وإنّي أرى من الضّروريّ أن أُضيف إلى ما قلته تصريحاتِهم في شأن الرّوح القدس.

عندما عرض فرفوريوس تعليم أفلاطون اعترف قائلاً: «من الجوهر الإلهيّ يصدر ثلاثة أقانيم: الخير وهو الإله الأعظم، وبعده صانع الكون، ثمّ روح الكون، فإنّ الرّوح أيضًا يصدر عن الألوهة». إثبات واضح أنّه يصدر عن الجوهر ثلاثة أقانيم؛ إله الكون واحد، وكلّ شيء يجري كما لو كانت معرفتنا للّه تتّسع لتشمل الثّالوث الأقدس الواحد الجوهر، أعني الآب والابن والرّوح القدُس الّذي يدعوه أفلاطون «روح الكون». الرّوح

يُحيي، وينبثق من الآب بالابن؛ «إنّنا بالروح نحيا، ونتحرّك ونوجد[٤١]».
وقد قال سيّدنا يسوع المسيح: «الرّوح يحيي[٤٢]».

هوذا أيضًا فرفوريوس متكلّمًا عن أفلاطون: «لهذا نراه في هذا النّطاق السّرّيّ يعبّر بالألغاز: «جميع الأشياء تحيط بالملك، وجميع الأشياء وُجِدت به، وهو علّة كلّ ما هو جميل، ولكنّ هنالك علّة أُخرى للأشياء الأدنى مرتبة من الأولى، وعلّة أُخرى للأشياء ذات المرتبة الثّالثة؛ وبكلام آخر جميع الأشياء هي حوالَي الآلهة الثّلاثة، ولكن أوّلاً حوالَي ملك الكون، وثانيًا حوالَي الإله الّذي يصدر عن الأوّل، وثالثًا حوالَي الإله الّذي يصدر عن الثّاني».

٤٨. لقد بيّن أفلاطون وأبرز الأقنوم الّذي يربط ما بين الآخَرين بدءًا «بالملك»، ثمّ التّعلُّق والخضوع التّراتبيّ من ناحية الإلهين الواردين بعد الأوّل، مستعملاً التّعبير «المرتبة الأولى»، «المرتبة الثّانية»، «المرتبة الثّالثة»؛ وقد أثبت أيضًا أنّ كلّ شيء صادر عن واحد فيه خلاصُهُ. ولكن مذهب أفلاطون لم يكن سليمًا من الشّوائب، فقد جنح أفلاطون، كما جنح من بعده دعاة الأريوسيّة، فذهب إلى التّقسيم والتّرتيب، وأدخل هرميّةً بين الأقانيم، ورأى في الثّالوث الأقدس الواحد الجوهر ثلاثة آلهة؛ ومع ذلك لم يُنكر الحقيقة تمام الإنكار، وأظنّ أنّه، لولا خوفه من حملات أنيتُس وميليتُس، وشوكران سقراط، لكان تكلّم وتصوّر في الخطّ المستقيم، ولكان أشاع في الجماهير صورة صحيحة عن عقيدته في الله!

---

(٤١) أع ١٧: ٢٨. (٤٢) يو ٦: ٦٣.

هرمس

يقول هرمس أيضًا في الجزء الثّالث من كتابه «الخُطَب الموجّهة إلى أسكليبيوس»: «لا يجوز تسليم مثل هذه الأسرار إلى غير المُهيّئين لذلك: أصغوا بعقولكم. وجد «النّور الرُّوحانيّ»، واحدًا وحيدًا، قبل النّور الرُّوحانيّ؛ وهو يواصلُ وجودَهُ، روحًا للرّوح مُضيئًا؛ ولم يوجد شيء غير وحدة هذا الرّوح: بوجوده في ذاته أزليًّا، يشمل أزليًّا كلّ شيء بروحه ونوره ونَفَسَه». وبعد قليل: «ما من إلهٍ، خارج الرّوح، ولا ملاك، ولا شيطان، ولا أيّ جوهر آخر؛ لأنّه في كلّ شيء ولكلّ شيء هو الرّبّ، والأب، واللّه، والمصدر، والحياة، والنّور، والرُّوح، والنَّفَس؛ كلّ شيء فيه ودونه».

٤٩. بقوله «روح مولود من الرّوح» يشير، في رأيي، إلى الابن، وكذلك بقوله «نور من نور»؛ وهو يدلّ أيضًا على الرّوح القدس بكونه يشمل كلّ شيء. يقول أيضًا أن لا ملاك، ولا شيطان، ولا أيّ طبيعة أُخرى أو أيّ جوهر تخرج من هيمنة اللّه أي عن قدرته اللاّمحدودة؛ ويُثبت أنّ كلّ شيء موجود بقدرة اللّه وتحت سيطرتها.

وفي الجزء الثّالث من «الخُطَب» نفسها يجيب هرمس نفسه عن سؤال في شأن الرّوح الإلهيّ ويقول: «لو لم يكن لدى ربّ الكون عناية حملتني على كشف هذه الحقيقة، لَما كنتم أنتم الآن على هذه الرّغبة المُلحّة في الاستفسار عنها! أصغوا إذن اليوم إلى ما تبقّى لي من قول في هذه القضيّة. جميع الأشياء في حاجة إلى هذا الرّوح الّذي كثيرًا ما حدّثتكم عنه. وإذ كان عليه أمر الكون بأجمعه، فهو يحيي ويغذّي كلّ شيء وفقَ حاجتِه واستحقاقه. إنّه أبدًا وحيد وإن كان موزّعًا للحياة على الجميع».

فهرمس يعرف إذن أنّ الرّوح موجود جوهرًا مستقلاًّ، وأنّه يحيي كلّ شيء ويغذّيه، وأنه يتعلّق بالله الآب ينبوعًا مقدّسًا: إنّه فعلاً ينبثق من الله بالطّبيعة، وبوساطة الابن يلبّي حاجات الخليقة.

الخلاصة

٥٠. بالبحث الدّقيق الّذي أوليناه من العناية الشيء الكثير، متتبّعين آثار هؤلاء المفكّرين أبرزنا بوضوح فكرة كلّ واحد منهم: فقد استطاع قرّاؤنا هكذا أن يقفوا على أنّ الكثيرين من حكماء اليونان ضلّوا الطّريق لأنّهم لم يعتمدوا إلاّ على تفكيرهم الخاصّ، فتضاربت آراؤهم، وتناقضت نظريّاتهم، ولكنّ بعضهم الآخر أُتيح لهم الاطّلاع على كتب موسى، لأنّ رغبتهم في المعرفة قادتهم إلى مصر؛ هؤلاء استقامت آراؤُهم بعض الاستقامة، واقتربوا من الحقيقة، ولكنّهم لم يسلم تفكير عقولهم من الشّوائب؛ وفي كلامي الموجز عن نظريّاتهم أعتقد أنّني لم أخرج بأحكام زائفة.

وهكذا فالعقائد المسيحيّة تنعم بالأسبقيّة، وهي حافلة بالحقيقة، وقد أيّدتها نخبة العقول البارزة، وهي أوفى وأسمى من ثرثرات اليونانيّين؛ وإنّي أظنّ أنّني بيّنتُ ذلك بوضوح كافٍ.

[ختام الكتاب الأوّل

من ردود الحكيم كيرلُّس]

الكتاب الثّاني

١. رأينا من المُوافق بل من المُفيد والضّروريّ أن نذكر التّسلسل التّاريخيّ للأشخاص، والصّورة الّتي تصوّروها للّه، وقد سُقنا كلامنا في هذا الموضوع بكلّ دقّة.

قد يؤخذ علينا إرجاء الرّدّ ويُقال: «ما بالُك، وأنتَ مُزمع أن تُساند الإيمان المسيحيّ، وتفنّد افتراءات يوليانُس وتجاديفه، تتباطأ ولا تبادرُ الموضوعَ رأسًا؟ لماذا حوَّلتَ كلامك عن الهدف المقصود، وانطلقتَ في تتبُّع السُّلالات، وفي دراسة المذاهب العبريّة واليونانيّة»؟

لِنُلْقِ عنّا أوّلاً هذه التُّهمة الّتي أُلصقت بنا، مُعلنين أنّنا قصدنا هذه المداورة قصدًا؛ فإنّ يوليانُس كزميله رمشاقا البابليّ[١] لم يتورّع عن إطلاق لسانه بالتّهكّم على مجد اللّه، وقد أتبع تهجّماته الشّرّيرة على ديانتنا المقدّسة بسرد أقوال حكماء اليونان وأغرق في الإشادة بآرائهم المُستنكرة، وتجرّأ على مهاجمة عقائد الكنيسة المقدّسة والتّهكُّم بكتب موسى، واتّهام جميع هؤلاء الأشخاص القدّيسين. وعُذرنا في إرجائنا الرّدّ هو انكفاؤنا على مادّة من شأنها أن تساعدنا على إظهار أنّ أعمال أعظمهم، أي موسى، سبقت أعمال الحكماء اليونانيّين، وأنّ الإيمان المسيحيّ، كما

---

(١) طالع ٤ ملو ١٨: ..١٧. غزا رمشاقا الأشّوريّ أورشليم في عهد حزقيّا وأغرق في سبّ يهوه إله إسرائيل ممّا جرّ الطّاعون على جيش أشّور، وانقلاب أبناء ملكهم على أبيهم.

نُقل إلينا، يسمو سموًّا لا قياس له على مواقفهم العقائديّة. بهذه الطّريقة وحدها كان بالإمكان تجنّب الاستطرادات الطّويلة في الكتب الآتية، وعدم الظّهور بمظهر الخروج عن الخطّة المرسومة. وبهذا القدر من الكلام نتوقّف عن الإطالة في التّبرُّر والتّنصُّل.

الطّريقة

٢. لِنَعْمد الآن إلى كتاب يوليانُس نفسه. سنوردُ نصَّهُ كلمةً كلمة، ونُقابل أكاذيبه بحُجَجِنا، لأنّه من الضَّروريّ القضاء عليها في غير هوادة. وهو، كما أسلَفْتُ القول، يتشدّق في غير انضباط، ومن فيه المفغور بكلّ وقاحة نشر افتراءَاته المتنوّعة على مخلّصنا المسيح، ووجّه إليه أقوالاً نابية: سأتحاشى عن إيراد مثل هذه التفاصيل، وألزم جانب الحكمة في إهمال ما في كلامه ممّا قد يلطّخ النّفس ويؤذي الأذن، متحوّلاً إلى مقارعة ما يدعو إلى المقارعة، كاشفًا في كلّ حال عن طبعه الهازئ الّذي يرسل الكلام على عواهنه ولا يستطيع لسانه أن يفوه بكلمة حقّ.

لا بُدَّ أيضًا من الإشارة إلى أنّه، في كتابه الأوّل، يُعالج مجموعة ضخمةً من الأفكار ولا ينفكُّ يكرّر الحُجج ويُردّدها في غير انضباط ولا اتّزان؛ وهنالك تفصيلات تردُ عنده في بدء الكلام ثمّ يعود إليها في متن الكتاب وفي آخره: إنّه في شبه اضطراب، وكأنّي به لا يملك أمره في نقاشه، ومن ثمّ فمُحاجُّه يرى أنّه مُضطرٌّ إلى تكرير الرّدّ فيما الحاجة إلى ردٍّ واحد. سنقسم نصّه إلى أقسام متجانسة، وسنُعالج أفكاره بعد جمعها في وحدات لا تضطّرّنا إلى التّكرير، وسنفصّل في ردّنا ما يحتاج إلى تفصيل وذلك كلّه على ما يقتضيه فنّ القول والرّدّ. وهو في بدء كتابه الّذي يهاجمُنا فيه يقول:

«أسطورة» الجليليّين

يوليانُس

يبدو لي من المفيد أن أعرض للجميع الأسباب الّتي أَقنعتني بأنَّ خُدْعة الجليليّين هي قصّة خياليّة نَسجها المَكْر؛ وليس فيها شيءٌ إلهيّ، وإنّما استغلّت الميل إلى الخُرافة، والنّاحية الصّبيانيّة والسّخيفة من النّفس، لتحوِّل روايةً خُرافيّةً إلى شهادة حقيقيّة.

كيرلُّس

٣. أظنّ أنّهُ يُطلق اسم «الجليليّين» على الرُّسل القدّيسين، واسم «الرّواية الخُرافيّة» على ما كتبه موسى، وعلى نبوءات الأنبياء القدّيسين وأقوالِهم في الشَّأن الإلهيّ؛ وعلى غير علمٍ منه، أو قل على تدخّل من الألوهة، دانَ بذلك خُرافته.

هنالك في الحقيقة جليلان، واحد في اليهوديّة، وآخر على حدود فينيقية؛ وقد ورد في الأناجيل بالنّسبة إلى المسيح مخلّصنا أنّه في تجواله على شاطئ بحر الجليل أي بُحيرة طبريّا، اختار تلاميذه[٢]؛ وقد قال اللّه بلسان أحد الأنبياء القدّيسين: «فما أنتم لي يا صور وصيدون، وأنت يا جليل، مسكن الشّعوب الغريبة». وكذلك يقول أشعيا الإلهيّ: «أرض زبولون وأرض نفتالي، وأمّا الأخير فأكرم طريق البحر عبر الأردنّ جليل الأمم. الشّعب السّاكن في الظّلمة أَبصر نورًا عظيمًا[٣]». ليس في اليهوديّة إذن جليليّون فقط، بل هناك وثنيّون أيضًا: «جليل الأمم» على حدّ قول

---

(٢) راجع متّى ٤: ١٨-٢٠؛ مر ١: ١٦-٢٠.

(٣) يوئيل ٣: ٤. – أش ٩: ١ أضاف كيرلّس الى نصّ أشعيا شيئًا من متّة: ١٥ – ١٦.

أشعيا. لسنا نرى بوضوح أيّ الخصوم يهاجم كتاب يوليانُس، وبأيّ لياقةٍ وحقّ: هل يهاجمنا نحن، أم يُهاجم نفسه في عصبة الخُرافة الحمقاء الّتي ينتمي إليها ويدعمها؟ فهم أيضًا جليليّون. وإلى ذلك فمعنى العبارات الّتي يستعملها يوليانُس تتّفقُ تمام الاتّفاق وسخافة اليونانيّين.

«أساطير» الهّلينيّة

٤. هل نجد هذه المجموعة من الأساطير، والأقوال الباطلة، والرُّكام التّافه وغير المسؤول من السّخافات المختلفة، عند سواهم، هم الّذين، ببسطهم مُختلقاتهم الدّقيقة، يحاولون إلباس الكذب لباس الحقيقة؟ لقد اشتدّ وتأصّل فيهم الخزي إلى حدّ أنّ عُقلاءهم الّذين تمرّسوا بالتّفلسف الملائم في موضوع العالم المحيط بهم، أطلقوا انتقاداتهم لسورة شعرائهم الضّالّة، وطلبوا إلقاء خُزعبلاتهم جانبًا؛ فأفلاطون لا يؤيّد الأناشيد الهوميريّة الّتي أبرزت آلهةً وإلاهات غارقة في الشَّبَق، تتجاذبها الأطماع البشريّة، وإلى ذلك خاضعة للألم والبُكاء، يلوّعها فقدان قريب وعجزُها عن انتزاعه من قبضة الموت، وهي في جبروتها تستسلم للقدَر وآلهته الّتي تفوق زفْسًا الأعظم سيّد الآلهة في العظمة والقدرة!

إلاّ أنّني لن أُطيل الكلام في هذا الموضوع خشيةَ أن يُنسب إليّ الخروج عمّا هو لائق، وهاءَنذا أعود إلى ما كنتُ آخذًا في معالجته.

٥. إذا كان هنالك «تخريف» فهو من صُنع اليونانيّين: إنّهم هم الّذين أخذوا على أنفسهم أن يدعموا الحقيقة بالخُرافة، وليس ذلك عن حسن نيّة، بل عن قصدٍ كافر واستئناس بإساءَة العمل! إنّهم هم الّذين هاجموا مجد الله الّذي لا يوصف بهذا القصص الخياليّ القبيح، والّذين زيّنوا الخُزعبلات وجعلوها شَرَكًا للنّفوس الضّعيفة.

لقد أضلّوا الأرض كلّها بادّعائهم أنّ السّماء والعناصر هي اللّه؛ وقد قال بولس السَّامي الحكمة: «زعموا أنّهم حكماء فصاروا حَمْقى، واستبدلوا مجد اللّه الّذي لا يُدركُه البلى، بشبه صورة إنسان يَبْلى، وطيورٍ ودبّابات وزحّافات[٤]».

حقيقة المسيحيّة

ومع ذلك، وفي مجرى آرائه، لا نرشق آخرين بالانتقادات الّتي صاغها وسندعها تهاجم الرُّسل القدّيسين، وموسى الحكيم نفسه، والأنبياء القدّيسين؛ ولكنْ فليأتِ إلى المحكمة، ويوضح ما حقيقة هذه «الخُدعة الخياليّة» الّتي نسجها المكر، ومن أيّ نوع هذه «الرّواية الخياليّة» الّتي تحدّث عنها، وفيمَ يقوم «الميل إلى الخرافة والنّهج الصّبيانيّ» في الدّيانة المسيحيّة! هل قصّ موسى قَصَصًا عندما اعترف بإلهٍ واحد بالطّبيعة والحقيقة، غير مولود، أزليّ، بريء من الفساد والكمّيّة، غير مرئيّ، لا يتغيّر ولا يُدرَك، إله هو حياة ومُحيٍ، وهو علم وقدرة، وخالقٌ، وملك الكون وسيّده؟ هل حادت عن الحقيقة كلمة الأنبياء القدّيسين الّتي تتّصل اتّصالاً وثيقًا بتعليم موسى؟ هل نجد تعليمًا مختلفًا عند الرُّسل القدّيسين؟ لا ثُمَّ لا!

تهجّم يوليانُس القبيح على المسيحيّة

٦. ثمَّ كيف يستطيع أن يُخلي عقيدة الجليليّين من كلّ أثرٍ إلهيّ، وأن يجعلها أساطيرَ جريئة، وتخيُّلات سخيفة؟ من يرفض الاعتراف بأن لا شيءَ أفضل للبشر من أن يعرفوا بوضوح ويقين صانع العالم وسيّده،

---

(٤) رو ٢٢ – ٢٣.

الواحد بطبيعته وحقيقته؟ خصُومنا أَنفسهم، على ما أعرف، يُقرّون بأن القسم الأجمل والأَروع في الفلسفة هو الفلسفة التّأمُّليّة: بها تستطيع النّفوس الأكثر استعدادًا للإدراك، أن تدرك الطّبيعة الإلهيّة بعض الإدراك، وبقدر ما يكون ذلك في مُكْنة البشر. وبما أنّه يدّعي الاقتناع بذلك فليقُلْ لنا من أين أتاهُ هذا اليقين! إذ إنّه ليس من الطّبيعيّ أن يدّعي المعرفة وحده؛ فإذا كان هو مقتنعًا، وإذا كان ذلك يكفيه لكي يبرهن برهانًا قاطعًا – على ما يدّعي ويؤكّد – بأن لا قيمة للمسيحيّة. وإنّنا لن نتأخّر عن القول بأنّ ذلك عنده مجرّد هذَيان؛ وهو إِذ يلهو بمُهاجمتنا لا نقف على ذلّةٍ وخضوع أمام قاضٍ شديد العداوة؛ وإذا كان يرى أنّ اتّهامات المتّهمين لأيٍّ كان يجب أن تكون مؤسّسة على حقيقة، وخالية من كلّ كذِب، فلا يقُلْ إذن إنّه وصل إلى قناعاته من ذات نفسه؛ فليناقش معتمدًا على وقائع!

فهو هو، لا نحن، المحكوم عليه باختلاقِ القصص الخرافيّ. ومن كلامه يُحكم عليه. فله إذن الكلام:

يوليانُس

أصول الإجراء

٧. في حين آخذُ بالكلام على مجمل ما يسمّونه عقائدهم لا بُدّ لي أوّلاً من قول ما يلي: يجب على قرّائي، إذا رغبوا في نقض ما أقول، أن يتجنّبوا، كما هي الحال في المحكمة، اللّجوء إلى البراهين الّتي تخرج عن الموضوع أو – وفاقًا للتّعبير القانونيّ – ردّ دعوى الاتّهام عليّ، ما داموا لم ينقضوا مقدّماتي. الإجراء يكون لهم أسهل وأوضح عندما يحاولون تقويم ما قد يكون لدينا من الاعوجاج؛ وعندما يُضطرّون إلى

تبرير أنفسهم أمام ملاحظاتنا عليهم، يتوقّفون عن الهجوم المضادّ.

كيرلُّس

حقّ الرّدّ

قل لي: هل يجب أن يكون أخرس، هذا الّذي تتّهمه؟ تطلب من المُدافع أن يتلقّى الحكم وهو صامت لا يفوه بكلمة تواجه ادّعاءاتك، وأن يتقبّل الحكم عليه صاغرًا؟! وما تحصينُ قضاياك وآرائك والحؤولُ دون مناقشتها إلاّ دليل خوف وشاهد على أنّ صاحبها يعرف ضعف موقفه. إذا كان هذا الرَّجل المُتحامِل على الدّين المسيحيّ لا يُقرُّه في جميع تعاليمه ويمنح الخرافة اليونانيّة إكليلَ المجد الأسمى، فليس من المستغرَب أن يطلب منّا الموقف نفسه؛ ولكن إذا طاب له أن يُهاجمنا بخُطَبه ويُعلي شأن تصوُّراته الخاطئة، مدّعيًا أنّ الدّيانة اليونانيّة تَفْضُلُ ديانتنا، فكيف يمكنه أن يطلب منّا الصَّمت، وأن لا نتعرّض لهذه الدّيانة ونحن لا نتكلّم إلاّ للدّفاع عن معتقداتنا؟

٨. لو أعرضتُ عن مهاجمة ما تكتب، واقتصرتُ على ذكر الحقائق اليونانيّة دون سواها لَقُلْت: «كتابه في الموضوع مقبول، ولا يخرج عن حدود المُحتمل». ولكن عندما ندافع عن أنفسنا، عندما نعتمد الرّدّ على كلّ تصريح من تصريحاته، كيف يحقّ له أن يأخذ علينا جهودنا في الدّفاع عن ديننا، وفي الكشف عن كفر اليونانيّين الشَّنيع؟ الألوان تُرى أكثر وضوحًا عند تبايُنها. وقد جاء في الكتاب «النّور يُضيء في الظُّلمة[٥]»، وكذلك أرى أن جمال الفضائل يظهر لنفوس البسطاء من

(٥) يو ١: ٥.

خلال قبحِ ما يناقضها. إنّ ما يميل بي إلى تغليب الخير هو قبحُ الشّرّ، ولهذا فمن حقّ يوليانس أن يخشى حُجج فريقه، ويأبى لما يُخزيه أن يظهر ويَعتلن، ويذهب في غيّه إلى إكراه مُتّهميه على لزوم الصَّمت. وهذه اتّهامات أُخرى يتوجّه بها إلينا.

تصوُّر اللّه

يوليانُس

الجليليّون يخونون العبرانيّين واليونانيّين

٩. من المُستحسن أن نعود قليلاً على مصدر وكيفيّة الصُّورة الأولى الّتي نتصوّرها عن اللّه؛ وعلينا بعد ذلك أن نقارب ما بين ما يقوله اليونانيّون عن الألُوهة وما يقوله العبرانيّون، ثمّ أن نسأل من ليسوا يونانيّين ولا يهودًا أي أولئك الّذين ينتمون إلى النّحلة الجليليّة، عن السّبب الّذي جعلهم يختارون الدّيانة اليهوديّة دون ديانتنا، والّذي حملهم على التّنكّر لليهوديّة نفسها، وعلى المُضيّ في طريقهم الخاصّ بعد انفصالهم عنها، غير معتنقين أيّ مذهب صحيح ورصين مُستقىً من تراثنا نحن اليونانيّين أو من تراث العبرانيّين المتحدّرين من موسى؛ فقد أخذوا عن هذين الشّعبين سمات متأصّلة في طبيعة كلٍّ منهما، أي لا دينيّة وكفر الخمول اليهوديّ، وانحلاليّة حياتنا اللاّمبالية، وقد حسُن لديهم أن يُطلقوا على ذلك كلّه «أفضل العبادات».

كيرلُّس

إنّ الرَّجُل نفسه الّذي يُغرق قرّاءَهُ بالشّتائم الّتي كان مزمعًا أن يَكيلها لنا، وذلك إذا عارضوه، ويحذّرهم من اللّجوء إلى مُحاجّاتٍ جانبيّة

لنقض كلامه، هذا الرَّجل يتبجّح الآن ويقارن بوضوح ما بين نظرة اليونانيّين ونظرة العبرانيّين إلى الألوهة. ولكن ما الهدف من هذه المقارنة؟ ما هدف يوليانُس من التّقريب التّناقضيّ ما بين المعتقدات العبرانيّة أو المسيحيّة والمعتقدات اليونانيّة؟

ردّ الاتّهام

١٠. لا يمكن القول بأنّه يُقلع عن اتّهامه، ويتخلّى عن حاجته إلى الشَّتم وميله إلى القدح والتَّجريح ليخضعَ لحكم قُرّائِهِ العادل، وينال منهم تحديد الأصلح والأقبح! في نظره، على ما يبدو، أنّ الوسيلة الوحيدة لكسب التّأييد لآرائه في الأُلوهة، تكمن في إِساءَته إلى الدّين المسيحيّ، وتفضيله الدّيانة اليونانيّة عليه. ولكنّ هذا التَّفضيل لا تسوغه العقول الّتي تعرف ضعف الضَّلال وقوّة الحقيقة. وهو في موقفه الاستعلائيّ يفرض علينا الصّمت والامتناع عن أيّ تعرُّضٍ لما يُدافع عنه وعن أيّ عرضٍ لما نحن فيه، وهو في ذلك ضحيّة أوهامه.

وإذ كان يُخضعنا للاستجواب، ويريد أن يعرف سبب تخلّينا عن الدّيانة اليونانيّة وميلنا إلى ديانة العبرانيّين، فإنّنا نتوجّه إليه بالسؤال نفسه، ونقول له: لماذا تخلّيت أنتَ عن الدّيانة المسيحيّة وفَرَرْت من الحقيقة لتعبدَ الكذبَ والبُهتان؟ لماذا حملتك الحماقة على تفضيل أقبح الخرافات – أي خرافة الوثنيّة – على عقيدة دقيقة وثابتة، وهل تصوّرتَ بعد ذلك أنّك تصرّفت بحكمة. في حين أنّك جلبتَ على نفسك أقبح الخزي؟ هل يريد يوليانُس أن يعرف السّبب الحقيقيّ لِتركنا الدّيانة اليونانيّة وتفضيلنا ديانة العبرانيّين عليها؟ إنّنا ننقل تعبيراته لنردَّ عليه؛ وهوذا ما يقوله:

يوليانُس

ميثات يونانيّة

١١. لقد حاك اليونانيّون في شأن الآلهة ميثولوجيا خياليّة ومُستغربة، فادّعوا أنّ كروتس ابتلع أبناءَهُ ثمّ قاءَهم؟ وتحدّثوا عن قِرانات مخالفة للطّبيعة: زفس يقترن بوالدته، وبعد إذ كان له منها أبناء، تزوّج ابنته الخاصّة، أو بالأحرى لم يتزوّجها بل فضّ بكارتها قبل أن يُزوّجها بآخر! أضف إلى ذلك تقطيع الأعضاء وإعادة لُحمتها في حفلات الخمر... هذا ما ترويه الميثولوجيا اليونانيّة!

كيرلُّس

التّعليم المسيحيّ

يا له من دفاع مُخزٍ تُقدِّمه هنا! فيمَ إذن هياجُك وادّعاؤك بأنّك تُصلح حالنا وقد رفَسْنا بأرجلنا هذيان اليونانيّين القبيح والبعيد عن الواقع، لنتمسَّكَ بالحقيقة؟ إنّ موسى الإلهيّ وبعدَهُ جوقة الأنبياء القدّيسين والرُّسل والإنجيليّين يُشيدون بمجد الإله الواحد بالطّبيعة وفي الحقيقة؛ وهم يدعوننا إلى الاقتداء بهم، بتحويلنا عن الخُرافات، وعن جميع أشكال المُستغربات، والتّصوّرات الدّينيّة، وبشدِّنا إلى حياةٍ نبيلة أهل بالإعجاب. لا شيء في ما يقولونه مُختلَق، لا شيء في آرائهم ما يتطلّب تفسيرًا بعيدًا عن المعقول؛ وتعاليمنا لا تختلف في الواقع عن تعاليم موسى، وتعاليم الأنبياء القدّيسين، وفحوى التّعليم الإنجيليّ والرّسوليّ يتّفق وتعليم أسلافنا: سنقدّم البراهين الدّامغة في الوقت الملائم.

١٢. وإذ كان يوليانُس يدّعي في عمَهانِه أن ليس عندنا شيءٌ جدّيّ

أو مفيد، فَلْيُبيّن لنا حقيقة ما يقول! ولا يدع ادّعاءَه جافًّا وبلا برهان! وكيف لا يكون لدينا شيءٌ جدّيّ؟ أليس هنالك دقّة وتعمّق في الكلام المسيحيّ عن اللّه وخلق العالم؟ ألم توفّر لنا الكتب المقدّسة أخلاقيّة كاملة ولا مأخذ عليها؟ وإلى ذلك فكيف لا يؤخذ المرءُ عندما يرى أن لا طريق أُخرى تستطيع أن تقود إلى الفلسفة العُلْيا؟ سواء كان التّفكير الفلسفيّ نظريًّا أو عمليًّا فهو جدير بكلّ تقدير، وأتباع الحكمة اليونانيّة أنفسهم يقدرونه كلّ التّقدير. فليس من الصّحيح أنّ «التّعاليم العبرانيّة علّمتنا الإلحاد» – هذا ما كتبه –؛ والحقيقة الّتي يجب أن تُقال هي أنّ الكتابة الّتي أوحى بها اللّه أتاحت لنا شجبَ الجهل اليونانيّ؛ والإلحاد بالحريّ هو شأنهم هم الّذين لا يعرفون الإله الواحد بالطّبيعة والحقيقة: كيف لا يكون ذلك واضحًا للجميع؟ وهو يدّعي أيضًا أنّنا «أخذنا عن الاستهتار اليونانيّ أسلوب عيش مُنحلّ الأخلاق والسّيرة» ناعتًا عدمَ امتناعنا عن أيّ طعام بـ «استهتار اليونانيّين»: وهكذا فما يعدُّه هؤلاء النّاس أسمى درجات التَّقوى، ويُساوونهُ بكمال جميع الفضائل هو الامتناع عن تناول هذا أو ذاك من الأطعمة!

ما من طعام محرَّم

١٣. يا لَلقباحة! كيف يجعلون من ضروب السُّلوك هذه معيارًا للنّقاوة؟ كلّ شيءٍ يأتي من اللّه. وكلّ ما يأتي من الكائن مصدر الصّلاح هو صالح، وهو الكلّيّ القداسة والنّقاوة لا يمكنه أن يخلق ما يُدنّسنا. وأيّ أثر للطّعام في من يتناولونه؟ أيّ دنس يستطيع أن يُلحقه بهم؟ أظنّ أنّ ما يجب استنكاره هو ما من شأنه أن يُفسد الإنسان؛ وما يُفسده بنوع خاصّ هو عادةُ السّلوك الذَّميم، والزّنى، والفجور، والنّميمة، والكذب،

والافتراء، والطَّمع...[٦] واليونانيّون الّذين لم يتجنّبوا أيًّا من أنواع هذه الرَّذائل، يتظاهرون بالقناعة في الأكل، وأحيانًا يمتنعون عن هذا الطّعام أو ذاك، من غير أن يمتنعوا عن شتّى أنواع الشُّذوذ. أضف إلى ذلك أنّهم يترضّون زفْسًا الرّبّ ويُجارونه في مُيوله، ويُكرمون سيادة أَفروديت.

خَلْقُ العَالَم

لا عدد للسّهام الّتي يرشقنا بها يوليانُس، وهو ينهال بنوع خاصّ على موسى الحكيم منتقدًا كتاباته انتقادًا شديدًا: يقول إنّ موسى عندما وضع كتابه في موضوع خلق العالم لم يكتب شيئًا حقيقيًّا بل اكتفى بجمع هذر قديم، ولم يُعِر أيّ اهتمام لما كان يبدو جديرًا باهتمام كامل، ثمّ إنّه كتب بلا تبصُّر نتفًا سخيفة مُتخيّلاً أنّه يقول فيها من الحكمة ما يروق ويُمتع. ويوليانُس بخلاف ذلك يقف موقف دهشة وإعجاب أمام آراء حكماء اليونان في هذا الموضوع، ويعلي شأن مذهب أفلاطون ويقدره أشدَّ تقدير.

١٤. إنّه يتشدّق في غير انضباط، ولكنّي سأتغاضى عنه لبرهة من الزَّمن، لأعرض، قدرَ المستطاع، أوهامه في شأن الثّرثرات اليونانيّة.

آراء الفلاسفة اليونانيّين

أرى أنّه لا بُدَّ من العودة إلى آثار اليونانيّين لاستخراج آرائهم المُختلفة في خلق العالم مقارنةً بما رواه موسى في الموضوع نفسه، فيلمس القُرّاء عند هؤلاء المفكّرين تحاليل لفظيّة وثرثراتٍ خرافيّة، فيما يجدون عند موسى وفي كتبه مصادر الحقيقة الّتي لا يشوبها كدَر.

---

(٦) متّى ١٥: ١٩ – ٢٠.

فلوطرخُس الّذي لم يكن مغمورًا في قومه يتكلّم عن العالم في الجزء الثّاني من كتابه «نظريّات في الطّبيعة» ويقول: «إنّ فيثاغورس هو أوّل من أطلق اللّفظة «كوزمس» (κόσμοσ) على كُتلة الكون بحسب النّظام القائم فيه. طاليس وأتباعه يقولون بوحدة الكون؛ ذيمكريتُس وأبيقورس وأستاذه ميتروذورس يقولون بوجود عدد لا محدود من العوالم في اللاّنهاية المُطلقة بمجرِّ الصُّدفة؛ وأمبيذقليس يقول بأنّ دورة الشّمس تحدّد حدود الكوزمس؛ وسلوكس يرى الكون غير محدود، فيما يرى ذيوجينس أنّ الكلّ غير محدود وأنّ الكون محدود. الرّواقيّون يجعلون فرقًا بين الكلّ والعالم: الكلّ هو ما يحتوي الفراغ اللاّمتناهي، وأمّا العالم فهو الكوزمس بدون الفراغ، بحيث إنّ العالم والكوزمس شيء واحد».

١٥. وفيما بعد يواصل الكاتب نفسه الكلام على شكل الكوزمس قائلاً: «الرّواقيّون يرونه كُرويًّا، وآخرون مخروطيًّا، وآخرون بيضويًّا. أبيقورس يرى أنّ العوالم تتقبّل الشّكل الكرويّ كما تتقبّل أيضًا أشكالاً أُخرى». وعن السّؤال هل للكون نفس أم لا، يعبّر فلوطرخس عن ذلك متذرّعًا أيضًا بمذاهب الفلاسفة اليونانيّين ويقول: «على وجهٍ عامّ يذهب الجميع إلى أنّ للكون نفسًا، وإلى أنّه خاضعٌ لعناية؛ ولكنّ ذيمقريطس وأبيقورس وسائر القائلين بالذّرّات والفراغ نفوا أن يكون للكون نفس وقالوا بكونه خاضعًا لا لعناية، بل لطبيعة غير عاقلة. أرسطو يُنكر إنكارًا تامًّا أن يكون للكون نفس، وعقل أو تفكير، وأن يكون خاضعًا لعناية: إنّها الأفلاك السّماويّة تشترك في هذه الموهبة، لأنّها تحتوي كرويّاتٍ ذات نفس وحياة، فيما تخلو منهما المناطق القريبة من الأرض؛ إنّها تشترك في النّظام القائم ولكن عرضيًّا لا جوهريًّا».

حَسْبُنا الكلام في هذا الباب. وإذ كان هؤلاء المفكّرون يبحثون في

هل الكوزموس فانٍ بطبيعته أم لا، كانت مُعطيَات أبحاثهم كما يلي: فيثاغورس والرّواقيّون ذهبوا إلى أنّ الكون الّذي خلقه اللّه قابلٌ للفساد بقدر ما تقبل طبيعته الخاصّة الفساد؛ وهكذا فبكونه جسمانيًّا تدركه الحواسّ كان لا بُدّ له من عناية وحماية من اللّه تصونانه من التَّلف. أبيقورس يرى أنّ الكون قابل للفناء لأنّه خاضع للولادة، كالحيوان أو النّبات. كسانوفانس يرى أن ليس للكون بدء، وأنّه من ثمّ أزليّ وغير قابل الفناء. أرسطو يرى أنّ ما تحت القمر من الكون خاضع للتّأثيرات الخارجيّة: في هذه المنطقة تفنى الأشياء الأرضيّة.

١٦. إنكم تسمعون وتلمسون، أيّها النّاس، ما في هذه الأقوال من هذَر وآراء متناقضة، وأصوات مختلطة يطلقونها على هواهم في غير دقّة، وفي غير تلاحم، وكأنّي بهم يستشفّون الحقيقة ولا يدركونها. هؤلاء يقولون بعالم واحد، وأولئك يقولون بعدّة عوالم؛ هؤلاء يُخضعون الكون للخلق، وأولئك ينقضون قولهم ويرَون أنّه لم يُخلق ولن يزول؛ هؤلاء يقولون بعناية إلهيّة تسيّره، وأولئك يُغفِلون العناية، ويُرجعون حركات الكون المتناسقة إلى آليّةٍ حركيّة أو أحداث عارضة؛ هؤلاء يجعلون للكون نفسًا، وأولئك يُنكرون ذلك؛ إنّهم بوجيز العبارة، يبدون متأرجحين وكأنّهم في نشوة خمر.

ولكنّ صاحبنا أفرد لأفلاطون مركزًا خاصًّا، وآثر التوقّف الطّويل عند تعاليمه: وأراني محمولاً على القول بأنّ أفلاطون وفيثاغورس قد توصّلا في كلامهما عن اللّه والكوزمس إلى نتائج أقرب إلى العقل ممّا قاله سواهما، وذلك لأنّهما استقيا معلوماتهما في الموضوع عندما كانا في مصر حيث كان للحكيم موسى سلطان حكمة وتقدير كلمة. ومع ذلك يُقال بأنّ أفلاطون وقع في مغالطات، وأنّ أرسطو، تلميذه، اختار، لا

أن يعتمد آراء أستاذه، بل أن يخالفه ويُعارضَهُ. يقول فُرفوريوس إنّ أفلاطون، عندما تحدّث عن السّماء، ذكر أنّ قسمها المادّيّ مؤلّف من العناصر الأربعة، تربط ما بينها نفس؛ ويضيف: «وهي لا تزال بطبيعة مزدوجة، وقد سُمّيت كذلك على سبيل التوسُّع».

١٧. يتكلّم فُرفوريوس هنا كلامًا تحليليًّا لغويًّا، على ما أظنّ، ويرى أن السّماء سُمّيت «أورانُس (οὐρανός)» لأنّها كائن مرئيّ، وذلك لكي تُتصوَّر كما تُرى. وقد رأى أرسطو غير هذا الرّأي، فهو لا يَعُدُّ السَّماء كائنًا مركّبًا، ولا مؤلّفًا من العناصر الأربعة، ولكنّه يرى فيها نموذجًا خامسًا من الأجسام، مستقلاًّ عن العناصر الأربعة، وبعيدًا عنها كلّ البُعد. أمّا أفلاطون فيرى للكون نفسًا، ويرى أنّه كائن حيّ وعاقل؛ وهو يُخضعه لعناية بخلاف تلميذه الّذي لا يرى هذا الرّأي، ويُنكر أن يكون للكون نفس تعقل وتخضع لعناية. من جهة أُخرى هذا يراهُ مخلوقًا وقابلاً للفساد بطبيعته، وذاك يراه غير ذي بدء وغير مخلوق وأنّه لا يُفنى. وهنالك أمر آخر: أفلاطون الحكيم والشّهير يرى ثلاثة عناصر في الكلّ: اللّه، والمادّة، والفكرة؛ اللّه خالق، والمادّة جوهر، والفكرة صورة كلّ مخلوق. أرسطو يعارضهُ ويُنكر رأيهُ: يُنكر أوّلاً أن تكون الصّورة مبدأً أو عنصرًا، وذلك في تفكيره وفي ما كتب، ويُثبتُ مبدأَيْن: اللّه والمادَّة. ولئن قال أفلاطون بثلاثة عناصر للكلّ الكبير: اللّه، والمادّة، والصّورة، فإنّه يُدخل عنصرًا رابعًا يدعوه «نفسًا كلّيّة». وبعد إذ قال بأنّ المادّة غير مخلوقة يعود إلى القول بأنّها مخلوقة، وأمّا الصّورة فبعدما قال بأنّها جوهر في ذاتها يعود إلى التّناقض فيقول بأنّها توجد في فكر اللّه، وأن ليس لها من ثَمَّ وجود ذاتيّ أي جوهر.

١٨. إلى مَن يميل الإنسان عندما يطلب الحقيقة ويرجو النّجاة من

الزَّلل؟ مَن مِن هؤلاء المفكّرين المذكورين تمكن تبرئته من البُهتان؟ مَن منهم لم يَعثر في رأي من الآراء فنشهد له بالنّصر؟ مَن من هؤلاء يُكلّف بتعليم عقول النّاس، وقد ابتعدوا عن الحقيقة إلى حدٍّ أنّهم تناقضوا في آرائهم، بل نقض بعضُهم آراءَه الشّخصيَّة؟!

يوليانُس الكلّيّ الحكمة يؤيّد هذه الحال وهو شديد الإعجاب بها؛ إنّه يهزأ بكُتب موسى، وفي تخبُّطه يجرؤُ على مقابلتها بكتب أفلاطون.

يوليانُس

أفلاطون يفوق موسى في الفلسفة

فلندع هنا مجال الكلام لأفلاطون. هوذا ما يقوله هذا الفيلسوف في شأن الله الخالق، وما ينسب إليه من الصّفات والأقوال عند خلقه العالم، ممّا يُتيح لنا مقارنة عمليّة الخلق عند أفلاطون وعند موسى، وإدراك أيّ المفكّرَيْن أفضل وأقرب إلى الله: الوثنيّ أفلاطون، أو ذاك الّذي شهد الكتاب بأنّ الله كلّمه وجهًا لوجه[٧].

"في الْبَدْءِ خَلَقَ اللّهُ السَّماوَاتِ والأَرْضَ وَكانَتِ الأَرْضُ خَاوِيَةً خَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الغمْرِ ظَلاَمٌ وَرُوحُ اللّه يُرفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاه؛ وَقَالَ اللّهُ لِيكُنْ نورٌ فكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللّهُ النُّورَ إِنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللّهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلاَمِ وَسَمَّى اللّهُ النُّورَ نَهارًا وَالظَّلاَمَ سَمَّاهُ لَيْلاً. وَكَانَ مَساءٌ وكانَ صَباحٌ يَوْمٌ واحِدٌ. وقَالَ اللّهُ لِيَكُنْ جلَدٌ في وَسْطِ الْمِياهِ. وَسَمَّى اللّهُ الْجَلَدَ سَماءً. وَقَالَ اللّهُ لِتَجْتَمِعِ الْمِياهُ الَّتِي تَحْتَ السَّماءِ إِلَى مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَلْيَظْهَرِ الْيَبَسُ. فَكَانَ كَذلِكَ. وَقَالَ اللّهُ لِتُنْبِتِ الأَرْضُ نَباتًا عُشْبًا يُبْزِرُ بِزْرًا وَشَجَرًا

---

(٧) خر ٣٣: ١١.

مُثْمِرًا يُخْرِجُ ثَمَرًا! وَقَالَ اللّهُ لِتَكُنْ نَيِّرَاتٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ وَجَعَلَهَا اللّهُ لِتُضِيءَ عَلَى الأَرْضِ، وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ[٨]».

١٩. لم يَرِد في هذا المقطع أنَّ اللّه خلقَ الغمْرَ والظّلامَ والماء؛ وكان من الأجدر بعد القول بأنّ النّور ظهر بأمرٍ من اللّه، أن يُقال القول نفسه في شأن الظَّلام والغَوْر والماء. فموسى لم يذكر قطّ أنّها أشياء مخلوقة مع أنّه يُكثر من ذكرها. ثمّ إنّه لم يأتِ على ذكر مولد الملائكة أو خَلْقها، وكيف آلت إلى الوجود؛ إنّه يقصر كلامه على الأجسام المادّيّة الّتي تحتويها السّماء والأرض، بحيث إنّ اللّه في نظره، لم يخلق أيًّا من الكائنات اللاّجسمانيّة، بل اقتصر عمله على إلباس المادّة الموجودة صورةً. والقول بأنّ «الأرض كانت خاوية خالية» لا يدلّ إلاّ على أنّها من صُنع كائنٍ يصنع من العُنصر الجافّ مادّة، وعلى أنّه يُبرز اللّه مُصوِّرًا، أيّ واضعًا للصورة.

كيرلُّس

الدّفاع عن موسى

هنالك أمور كثيرة، وتفصيلات طويلة، جديرة بالذّكر في موضوع موسى. إنّه سمع اللّه يخاطبُه ويقول: «بماذا يُعرَف أنّي نلتُ حظوةً في عينيك أنا وشعبُك، أليس بمسيركَ معنا فنمتاز أنا وشعبك من كلّ أمّةٍ على وجه الأرض، فقال الرّبُّ لموسى هذا أيضًا الّذي سألتَهُ أفعلُه لأنّك قد أصبتَ حظوةً في عينيّ وعرفتُك باسمك[٩]». بين الفضائل المتعدّدة الّتي كان يتحلّى بها، القدرة على صُنع المعجزات، ولا سيّما تلك الّتي صنعها

---

(٨) تك ١: ١ – ١٨.
(٩) خر ٣٣: ١٦ – ١٧.

في مصر، والّتي تكفي للدّلالة على شخصيّته، فقد كان خاضعًا للّه العليّ، ومُستعينًا به في ثورته على ظلم المصريّين. ماذا كان أفلاطون؟ إنّ انتقاله من أثينة إلى صقلّية[١٠] كافٍ للكشف عن حقيقته؛ فقد قيل إنّ ذيونيسيوس لم يُطِق تملُّقاته، فباعه وأنزل به العقوبة الشّنيعة الّتي تليق بالعبيد. ولكن فلندع الآن هذا الحديث ولنعُدْ إلى ما يهمّنا.

٢٠. لم يكن موسى الإلهيّ ليظهر أمامنا مجترئًا ويروي لنا أقاصيص غريبة، ولم يكن ليمضي في هذه الطّريق لمجرّد الطّموح: كان هدفه أن يُسهم في تحسين السُّلوك البشريّ. إنّه لم يعمل على معالجة الدّقائق في طبيعة الأشياء، على الخوض في ما يسمّونه المبادئ الأولى، أو العناصر الّتي تصدر عنها؛ فهذه الموادُّ، في نظري، يكثر تطلُّبها، وهي تَستعصي على بعض العقول. كان هدف موسى أن يُنشّئ نفوس مُعاصريه على عقيدة الحقيقة، لأنّهم كانوا على ضَياع يذهب بهم الضّالّون كلَّ مذهب؛ وقد امتدّ بهم الجهل المُدقع إلى تجاهل الإله الواحد، الإله بالطّبيعة، وعبادة الخلائق.كان بعضهم يرى اللّه في جَلَد السّماء، وبعضهم في قُرص الشّمس؛ وكان منهم من ذهب إلى تأليه القمر، والنّجوم، والأرض، والنّبات، وحيتان البحر، والطّيور، والوحوش! كانوا على هذه الحال، وكان سكّان الأرض فريسةَ عاهةٍ عمياء عندما ظهر موسى لنجدتهم بمعارف جليلة: أعلن بوضوح أنّ للكون خالقًا واحدًا، وميّزه من جميع الكائنات الّتي أخرجها إلى الوجود. وقد راح موسى، في روحه العمليّة الواضحة، وبعيدًا عن الإيغال في التدّقيق، يُعالج الأُمور الضّروريّة دون سواها.

٢١. ما كانت الفائدة بالنّسبة إليه في أن يتحدّث عن طبيعة المياه،

---

(١٠) إشارة إلى أسفار أفلاطون بعد موت سقراط. وقد نشب خلاف بين الفيلسوف وذيونيسيوس القديم في صقليّة فعاد أفلاطون إلى أثينة. وقصّة بيع أفلاطون عبدًا هي أسطورة لا حقيقة لها.

وكيف ظهرت في البدء، وأن يقيس الأغوار وطبيعة السّماء، وأن يتوقّف عند طريقة وجود الملائكة؟ كان من الصّعب على كلّ إنسان أن يُعالج مثل هذه الأُمور. وهَبْ أن أحدًا من النّاس توصّل إلى ذلك بعلمٍ خاصّ أوتِيَهُ من اللّه فمن كان قادرًا أن يُصغي إليه ويفهم كلامًا هكذا دقيقًا، أو بالحري هكذا بعيدًا عن متناوَل العقل؟ وإنّنا لنجدُ، في عهد كتابة كتاب الحكيم موسى، جهلاً في الشّعب يفوق جهل اليونانيّين. فما كان من شأنه أن يحمل أولئك النّاس على أن يعرفوا مجد اللّه معرفةً عميقة هوى بهم إلى أعمق مهاوي الحماقة. قال كتاب الوحي إنّه كان على بشر ذلك العهد أن يعرفوا خالق الكون وصانعه بمجرّد النّظر إلى جمال المخلوقات؛ ولكنّهم وصلوا إلى درجة من الشّذوذ هكذا شديدة حتّى إنّ ما كان من شأنه أن يقودهم إلى معرفة الحقيقة تحوّل إلى طريق لاعتناق الباطل. وقد أيّد الحكيم بولس هذا الكلام بقوله: «إنّ صفاته غير المنظورة، ولا سيّما قدرته الأزليّة وأُلوهته، تُبصَر منذ خلق العالم مُدْركةً بمَبْروءَاته؛ فهم إذن بلا عُذر، إذ إنّهم مع معرفتهم للّه لم يُمجدوه كإلهٍ ولم يشكروهُ، بل سَفِهوا في أفكارهم وأظلمت قلوبُهم الغبيّة[١١]».

يُعرَف اللّه عن طريق الأشياء المرئيّة

٢٢. قد يكون هذا الكلام موجّهًا إلى من ابتدعوا الخرافة الفظّة والبعيدة عن المعقول، كأولئك الّذين توجّه إليهم كتابُ موسى؛ إنّهم حمقى يملأهم السُّخف كما سيتّضح لنا ذلك عند دراسة مجموعة المذاهب الّتي ذهبها من أتوا بعدهم.

---

(١١) رو ١: ٢٠ – ٢١.

بلوترخُس، الرّجل المعروف بدقّته، كتب في شأنهم في الكتاب الأوّل من مجموعته «آراء في الطّبيعة» ما يلي: «إليكم كيف استخرجوا فكرة اللّه: الشّمس والقمر وسائر الكواكب في مسارها المستمرّ تحت الأرض، تُشرق أبدًا بالألوان نفسها، والأحجام نفسها، وفي مواقع لا تتغيّر». وهو يقول في ما بعد وفي الكتاب نفسه: «إنّهم يحدّدون فكرة اللّه كما يلي: روح عاقل وناريّ، غير ذي شكل، ولكنّه يتغيّر على هواه ويشاكلُ كلّ شيء. النّاس في البدء تصوّروا هذا الكائن انطلاقًا من جمال المشهد الّذي تراءَى لهم، فما من شيء جميل يظهر بالصُّدفة: إنّه بحاجة إلى فنٍّ يخلقُه».

أُضيف إلى هذا القول ما كتبه قديمًا هرمس التّريسمايسْتُس في كتابه «إلى نفسي» (هذا عنوان كتابه): «أتقول هكذا أنّ اللّه غير مرئيّ؟ كفى كُفرًا! من أكثر رؤيةً منه؟ لئن خَلَق فلكي يُرى من خلال كلّ شيء. امتياز اللّه، ومزيّته في كونه يتجلّى في كلّ شيء».

٢٣. سنجد أوّلاً أنّ يوليانُس، عدوّ ديانتنا المقدّسة، يوافقنا على هذا الموضوع. إنّه يعترف بأنّ معرفة اللّه لا تحصل عن طريق التّعليم، وأنّ الإنسان يحصل عليها تلقائيًّا؛ هوذا ما كتبه:

يوليانُس

في كونها لا تحصل عن طريق التّعليم، وفي كونها فطريّة عند الإنسان، يدلّنا على ذلك أوّلاً ميل البشريّة كلّها جمعاء إلى التّعبُّد لما هو إلهيّ سواء كان ذلك في الحياة الخاصّة أو العامّة عند الأفراد أو عند الشّعوب؛ فجميعُنا، من طبيعتنا، نؤمن بكائنٍ إلهيّ؛ ولكنّ محاولة وصف هذا الكائن بدقّة أمر يستعصي على كلّ إنسان، وإن كان من عارفيه.

وبعد ذلك يقول: إلى هذه الفكرة الشّائعة بين البشر يضاف أمر آخر وهو أنّنا نحن البشر نملك طبيعة شديدة الارتباط بالسّماء وبالآلهة بحيث إنّنا نجد صاحب الإله المختلف عن آلهتنا يجعلُ إلهه أبدًا مُقيمًا في السّماء: لا أنّه يعزله عن الأرض، ولكنّ الأمر يجري على أن يجعل هناك مقرّ ملك العالم، أيّ أهم مكان في العالم، لأنّه يفرض أنّ اللّه يُراقب من فوقُ جميعَ أمور الأرض.

كيرلُّس

هكذا نرى بين الوثنيّين مَن لم يستطيعوا تحمُّل الضّلالة المُطبقة السّخيفة، فتخلَّصوا من النّظر إلى التّفاهات، ولم يفقدوا فكرة اللّه الحقيقيّة: لقد استشفّوا ما ينبغي أن تكون قدرته لكي يستطيع أن يُخضع خليقةً عظيمةً وعجيبةً كهذه لنظامٍ متناسق رائع.

مذهب موسى في أنّ اللّه سيّد الكون

٢٤. أمّا الآخرون الّذين نتحدّث عنهم فإنّهم لم يعرفو اللّه من خلال خليقته: كانوا إلى هذا الحدّ من عَشوة الذّهن وضياع الحسّ الإنسانيّ حتّى إنّهم لم يقفوا عند عبادة السَّماء، والأرض، والقمر، وسائر الكواكب[١٢]، بل تعدَّوها إلى إقامة مقاماتٍ مقدّسة تعْمرها رسوم وتماثيل مختلفة الأشكال، وحفروا فيها أشباحًا بشريّة، وحيوانيّة غير عاقلة، وطيورًا ودبّابات[١٣]، وسمَّوها «آلهة» و«مُخلِّصين».

كيف لا نقف مُعجبين بمهارة موسى؟ كان يكتم من أبناء ذلك الزّمان كلّ ما هو عميق، وصعب الاستيعاب والإدراك، ويكشف لهم عمّا

---

(١٢) رو ١: ٢٠ – ٢٢.
(١٣) تث ٤: ١٥ – ١٩.

يساعدهم على حسن التّصوُّر وقويمه، وعمّا يمكن أن يقودهم إلى عقيدة سليمة – أي إلى الاعتقاد باللّه الكلّيّ القدرة. إنّه ليُثنى على أساتذة المدارس عندما يجعلون كلامهم على مستوى طلاّبهم العقليّ، ويقودونهم خطوة خطوة لاكتشاف الحقائق المقدّسة، ويُخْلون طريقهم، منذ البدء، من كلّ فكرة غامضة ومعقّدة، وكيف لا يُثني على موسى رجل اللّه الّذي سلك السّلوك نفسه؟ وإذا بَدا لك، يا يوليانُس، أن موسى لم يقلْ شيئًا ذا قيمة، فهل تريد أن ننتقل إلى مذهب ينال إعجابك؟ لِنُقْبِل بكلّ قوانا على مذهب هيسيوذُس الدّقيق في نسَب الآلهة (Θεογονία).

هيسيوذُس

٢٥. يتظاهر هذا الشّاعر بأنّه يسمع صوت الآلهة، وبأنّ ربّات الفنّ يسكنّ فيه، وكأنّ ذلك أمرٌ ذو أهمّيّة، ومطلبٌ جذّاب! وهو يقول:

«قُلْ لي كيف وُجِدت الآلهة والأرض،
الأنهار، البحر المحيط الّذي يتضخّم ويغلي،
الكواكب النيّرة، وفوق كلّ ذلك السّماءُ الواسعة؟»

وبعد ذلك يروي أنّ الغمَر واللّيل ظهرا ولكنّه لا يُبيّن كيف جرى ذلك:

«ولدت الأرضُ في البدء السَّماءَ ذات الكواكب، موازيةً لها،
ومن شأنها أن تُغطّيَها تغطيةً كاملة...»

وبعدما أخبر أن السّماء بنتُ الأرض، أضاف أنّ الأرض، باتّحادها بالسّماء، ولدت البحار...

قد يدّعي يوليانُس أنّ هيسيوذُس قد جرى في هذه الأخبار على سنّة الشّعراء، وقد يخجل من خرافات هيسيوذس! ولكنّ ما الّذي يحمله

على التّنديد بموسى كليم اللّه، الّذي وضع كتابًا واضحًا ومُنزَّهًا عن الخطأ، كتابًا يروي الأخبار الخالية من الضَّلال؟ لقد أثبت أنّ اللّه خلق السّماء والأرض، والشّمس والقمر، والكواكب والنّور، والحيوانات الّتي تطير والّتي تسبح، وسائر الدّبّابات، كما خلق النّبات الجميل، والفواكه، وأعشاب الحقول.

وصف واضح للعالَم عند موسى

٢٦. تأمَّلْ كيف يقضي نصُّ موسى، بحكمةٍ جزيلة، على الضّلال الّذي شاع لدى الأقدمين: ألم يسمُّوا السّماء زفسًا، والأرض ذيمترا، والشّمس أبولّون، والقمرَ أرتميس «الإلهة ذات المِغزل الذّهبي»؟ وبوجيز الكلام أَضْفَوا، في هواهم، قسطًا من المجد على كلّ خليقةٍ من خلائق اللّه، وعبدوا هذه الخلائق على أنّها آلهة.

وإذا عدنا إلى موسى وجدنا أنّ وصفه للخليقة كان واضحًا، قريبًا إلى الإدراك، خاليًا من التّعمُّل في دقّته الرّائعة. هذا ما نريد إظهارَهُ. قال: «في البدء خلق اللّه السّماء والأرض»: إنّه يرفض أن تكون المادّة شريكة اللّه في عدم البدء، وأن تُرى غير مخلوقة، وفقَ ما يذهب إليه البعض؛ إنّه لا يُظهر ما لم يكن في زمنٍ ما مشاركًا للّه في الأزليّة، ولا يقرن ما هو زمنيّ، ومشدود إلى الوجود بصعوبة، بمن كان في كلّ زمان، وما هو متحوّل بالثّابت أبدًا على حاله، وما هو قابل للفساد بغير القابل للفساد. إنّه، بخلاف ذلك، يُحدّد للخليقة زمنًا، مبدأً تكون منه الولادة، لأنّها قيدت من العدم إلى الوجود بإرادة إلهيّة. ما لا يقوله هو أن تكون المادّة موجودة قبل ذلك، وأن لا يكون اللّه سوى المُنظِّم والصّانع لا غير، الّذي يُشكِّل على هواه ما لم يكن له شكل، ويعطي للمادّة صورًا مختلفة،

ومقاييس وأحجامًا مختلفة؛ فموسى يقول إنّ اللّه، بقدرته الّتي لا توصف، أوجد ما لم يكن له أيّ نوع من الوجود.

طريقة الخَلْق تفوق إدراكنا

٢٧. أمّا طريقة الخَلق فليس لعقلنا طريق إلى إدراكها؛ إنّها فوق كلّ تعبير؛ وكيف يمكن الكلام على ما يفوق قوى العقل؟ في رأيي أنّ الوسائل الّتي يلجأ إليها الجوهر الأسمى، والطّريق الّتي تقود إلى أيٍّ من مشاريعه، ستظلّ فوق مستوى إِدراكنا البشريّ لأنّنا بطبيعتنا دون مستوى الجوهر الإلهيّ. عندما يقول موسى: «في البدء خلق اللّه السّماءَ والأرض» يلخّص بكلمة واحدة جميع تفاصيل الخَلْق؛ ثمّ يأخذ في وضع كلّ شيء في موضعه.

أثر الكلمة في خلق العالم

وموسى يشير إلى أنّ اللّه خلق بالكلمة الكلّيّة القدرة، فكلمته خالقة الكون هي اللّه نفسه ومنبثقة من اللّه بالطّبيعة. ويواصل موسى قولَهُ: «ليكن جَلَد» فكان الجلَد حالاً بفعل الكلمة، وسمّى اللّه الجلَد سماءً. وقال اللّه: «ليظهر اليبَس، ولتجتمع المياه الّتي تحت السّماء إلى موضع واحد». وقال اللّه أيضًا: «لتكن الشّمس، فكانت». وهكذا بالنّسبة إلى القمر، والكواكب، والنّور، والحيوانات الأرضيّة والبحريّة والطّيور. ولكنّ طبيعة العناصر لا يمكنها في ذاتها أن تنجو من الفساد، فهي بحاجة إلى يد من يحفظها في حالة جيّدة: هذا ما عناه موسى عندما قال: «وروح اللّه يُرفّ على وجه المياه». نعم إنّ روح اللّه يُحيي كلّ شيء لأنّه بطبيعته حياة لكونه ينبثق من حياة الآب. كلّ شيء بحاجة إليه، وليس لشيء أيّ وسيلة أُخرى بمعزل عنه للبقاء على ما هو عليه.

٢٨. تأمَّلوا إذن، كما سبق لي القول، تأمّلوا الفلك ثابتًا بالكلمة، والأرض اليابسة طافيةً بعد تجمُّع المياه؛ تأمّلوا الأرض زاهيةً بخضرة العُشب والشّجر، وقوى الحياة كامنةً فيها مُتيحةً لطبيعتها العاجزة عن البقاء الدّائم أن تتجدّد وتدوم؛ تأمّلوا نيّرات السّماء الّتي لم يخلقها اللّه إلاّ لِتُنير ما على الأرض، وتحدّد الأزمنة، والأيّام، والسّنين. وقد أضاف موسى أنّ الأرض أُمرت بأن تُخرج ذوات أنفُسٍ حيّة، على أن يوزّع اللّه على كلّ نفس حيّة الشّكل والحجم وسبيل الوجود.

... وخلق الإنسان على صورته

بعدما خُلِق كلّ شيء في العالم، وعندما توفّر كلّ ما يحتاج إليه الإنسان، عند ذلك، عند ذلك فقط أخذ الخالق يفكّر في طريقة خلق الإنسان نفسه. وما كان خلقُ الإنسان ليجري كسائر الخلق ارتجالاً. وليس ما نعرفه عن الكائن الأعلى سوى أنه عظمة وكمال، بل أنّه فوق كلّ عقل، وكلّ كلام، وكلّ إعجاب: فقد أقرَّ أن يصنع الحيوان على صورته ما أمكن ذلك. ولكي ينجو من أن يكون هذا المصنوع على صورته كمثاله، أي الإنسان، هزيلاً، خسيسًا لا فرقَ كبيرًا بينه وبين سائر الحيوانات، لم يخلقه إلاّ بعد تفكيرٍ عميق.

٢٩. من الحقّ أن يُقال أن لا شيء يفوتُ العقل الإلهيّ، فهو يعرف كلّ شيء قبل وجوده[١٤]، ولماذا يفكّر اللّه وهو يعرف مُسبقًا طبيعة الإنسان؟ لقد قلتُ إنّ موسى العظيم يرى من المطابق للتّدبير الإلهيّ أن يستحقّ الإنسانُ اهتمامَ الخالق وتفكيره؛ لقد أظهر أنّ خليقته هذه لم تكن كسائر

---

(١٤) دا ١٣: ٤٢.

الخلائق، وكأنّي به يُعيرها اهتمامًا خاصًّا؛ فالإنسان أشرفُ الحيوانات، وقد صُنع على صورة مَن خلقهُ.

إتّفاق الفلاسفة اليونانيّين

رغباتُ اللّه الّتي لا تُقاوَم أوجدت الخليقة كلّها: ليس من الصّعب الاقتناع بذلك، ولو عن طريق الكتابات الّتي خلّفها أساتذة الخرافة الّذين يجلّهم يوليانُس. كان الجميع يرَون من اللاّئق الأخذ بأنّ اللّه خلق كلّ شيء، ما كان ماديًّا وما كان روحانيًّا، ما كان مرئيًّا وما كان غير مرئيّ. اتّفقوا جميعًا على أنّ كلّ شيء في يد ملك الكون وسيّده. أفلاطون يقول: «آلهة الآلهة الّذين أنا خالقهم وأبوهم...».

لقد أوردتُ في الموضوع أقوال اليونانيّين، ولن أُكرّر، وسأكتفي بذكر ما يقول هرمس التّريسمايسْتُس في كتابه «إلى أسكليبيوس».

هرمس

٣٠. يقول هرمس: «صاح أوزيريس: وبعدُ، أيّها الرّوح الصّالح، كيف ظهرتِ الأرض؟ فأَجاب: وفاقًا لتصميمٍ مُقرّر، وتجفيفٍ مُحكم. لقد أمر الرّبُّ المياه بأن تتراجع، فظهرت الأرض كلّها موحلةً تهزُّها الزّلازل؛ وأخذت الشّمس إذ ذاك تلمع، وتنشر حرارتها بغير انقطاع، فجفَّفت الأرض، وثبتت الأرضُ جافّةً تحيط بها المياه». وفي موضع آخر من الكتاب نقرأ: «صاح خالق الكون وسيّده قائلاً: لتكنِ الأرض، وليظهر الفلك! فكانت الأرض، بكر عناصر الخَلْق». هذا من ناحية الأرض، أمّا ما يتعلّق بالشّمس فقد وصفه هرمس كما يلي: قال أوزيريس: «أيّها الرّوح الصّالح الثّلاثيّ العظمة، من أين أُوتينا هذه الشّمس العظيمة؟

أجاب الآخر: هل تريد يا أوزيريس أن نروي قصّة ولادة الشّمس؟ وكيف ظهرت؟ لقد ظهرت بعناية الرّبّ الأعلى؛ وقد جرى خلق الرّبّ الأعلى للشّمس بفعل كلمته المقدّسة والخلاّقة».

وكذلك كتب هرمس في الكتاب الأوّل من «تفسيره المفصّل لِتات» ما يلي: «سيّد الكون صاح بكلمته المقدّسة، والرّوحيّة، والخالقة: لِتكُن الشّمس؛ وما إن قال ذلك حتّى هبّت النّار الصّادرة عن طبيعة عالية – أعني النّار الصّافية، والأشدّ إشعاعًا وفعلاً وإخصابًا – وامتدّت بطبيعتها وقوّة اندفاعها، وتجمّعت في الأفلاك العليا، بعيدةً عن الماء».

اللّه الخالق

٣١. كلّ شيء وُجدَ بأمر اللّه وبفعل الكلمة الخلاّق. هذا ما يجب على الإنسان أن يفكّره؛ والقول به مطابق للحقيقة؛ ولكن كيف جرى الأمر، وبأيّ وسيلة؟ اللّه وحده يعلم ذلك.

إنّ اللّه يمنح كلّ شيء هذا أو ذاك النّوع من الوجود وفقَ إرادته، ويحدّد نوع الوجود، وفي قول موسى ما يوضح ذلك: «ليكُن جَلَد، فكان جلَد»؛ وكذلك: «لتتجمّع المياه الّتي تحت السّماء في مكان واحد وليظهر اليبَس». هذه التّعبيرات تحدّد طبيعة كلّ شيء يُدعى إلى الوجود.

هرمس التّريسمايسْتُس اليونانيّ يشير إلى الموضوع. إنّه يُظهر اللّه قائلاً للخليقة: «إنّني أفرض عليك فرضًا، أنتِ الخاضعة لي، هذه الوصيّة الّتي أوصاكِ إيّاها كلمتي؛ إجعلي منها لكِ نظامًا». أجل لقد وضع الخالق نظامًا طبيعيًّا في كلّ خليقة، والخلائق يحكمها ناموسها الطّبيعيّ الّذي لا محيد عنه.

تلك هي الحقيقة، ولكنّ يوليانُس في نشوته الأفلاطونيّة يكتب ما يلي:

إسمعوا ما يقوله أفلاطون عن الكون: «السّماء بمُجملها، أو الكون – وَلْنُسَمِّها بأيّ اسم آخر – هل كان لها وجود دائم، ليس له بدء، أم هل كان لها بدء؟ لقد كان لها بدء لأنّها تُرى وتُلمس، ولأنّها مادّيّة؛ فكلّ ما هو كذلك هو الحسّيّ، المعقول عن طريق الحواسّ». وفي ما بعد: «وهكذا نستطيع القول، اعتمادًا على العقل والمعقول، بأنّ هذا العالم هو حيوان ذو روح ونفس، وهو صادر في الحقيقة عن العناية الإلهيّة».

كيرلُّس

٣٢. هذا ما يقوله من هو، في نظر يوليانُس، «أفلاطون الإلهيّ والكلّيّ الحكمة»: مُجمل الكون – أيًّا كان اسمه – هو مولود، ذو بداية؛ إنّه ملموس، مَرئيّ، مادّيّ، موضوع نظر عن طريق الحسّ، وقد خُلِق عن طريق العناية الإلهيّة. لقد أخطأ أفلاطون وأخطأ يوليانُس المُعجب أشدّ الإعجاب بأفلاطون؛ وليست هذه الآراء بنجوة من النّقد، وهي تتقلّب مع كلّ ريح؛ وها نحن أولاء آخذون في إبراز الحقيقة موردين قول يوليانُس التّالي:

يوليانُس

لِنُقارِن ما بين شيء وآخر فقط: أيّ خليقة خلقَ إله موسى، وأيّ خليقة خلق إله أفلاطون؟ قال اللّه: «لِنَصنعِ الإنسانَ على صورتنا كمثالنا، وليتسلَّط على أسماك البحر وطيور السّماء والبهائم وكلّ الأرض، وعلى جميع الحيوانات الّتي تدبّ على الأرض. وخلق اللّهُ الإنسان، خلقه على

صورة اللّه ذكرًا وأنثى خلقهم، وباركهم اللّه وقال لهم: «انْمُوا واكثُروا واملأوا الأرضَ وأخضعوها، وتسلّطوا على أسماك البحر وطيور السّماء وكلّ حيوان يدبّ على الأرض[١٥]».

تشخيص أفلاطون للخالق

٣٣. هوذا الآن الخطاب الّذي يجعله أفلاطون على لسان خالق الكون: «آلهة الآلهة، إنّ الصّنائع الّتي أنا خالقها وأبوها غير قابلةٍ للانحلال ما دامت في حكم إرادتي؛ إذ إنّ كلّ ما رُبط يمكن حلُّه، والعمل على حلّ ما كان حسن التّنسيق وكان على حالٍ جيّدة، إنّما هو عملُ شرّير. وإذ كنتم قد خُلقتُمْ فلستم إلى زوال ولا إلى انحلال؛ إنّكم لن تُتلَفوا، ولن تقعوا تحت وطأةِ قدَرٍ مميت، لأنّ نصيبكم أن تكونوا منوطين بإرادتي، وذلك رباطٌ أشدّ وأنجع من الرُّبط الّتي كانت تربطكم بالولادة. فاحفظوا إذن تعاليمي الّتي أودعكم إيّاها. لا يزال هنالك ثلاثة أجناس من المائتين لا بُدّ من خَلْقهم؛ وما داموا غير موجودين فالسّماء ناقصة، لعدم احتوائها جميع أجناس الكائنات الحيّة. فإذا خلقتُها أنا ومدَدْتُها بالحياة صارت مُساويةً للآلهة. فلكي يكونوا مائتين، ويكون هذا الكلّ حقيقةً الكُلّ، قِفوا أنفسكم، بحسب طبيعتكم الخاصّة، على خَلق كائنات حيّة، مقتدين بما فعلتْهُ قدرتي عندَ خَلْقِكم؛ وإذ كان يليق بهم أن يحملوا اسم اللاّمائتين نفسه، ممّا يُدعى «الإلهيّ»، وكانوا يقودون من أَلِفُوا الانقياد للعدل ولكم، فإنّي سأمنحكم البذار والمبدأ. في ما سوى ذلك احبكوا المائت مع غير المائت، واصنعوا ولِدُوا كائنات حيّة، وقدّموا لها الغذاء لِتَنموَ، وعند موتها عودوا إلى التقاطها».

---

(١٥) تك ١: ٢٦ – ٢٨.

كيرلُّس

سموّ الشّبه الإلهيّ

٣٤. هكذا يندفع هذا الرّجل في غُلوائه ويهاجمُنا ويهزأُ برواية خلق العالم – أعني تلك الّتي رواها موسى الإلهيّ – ويرى زريًّا أن تكون الطّبيعة البشريّة قد حظيت من اللّه بأن تكون مخلوقةً على صورته كمثاله! كيف لا يوافق الإنسان العاقل على القول بأنّ هذا الأمر هو من الأُمور الّتي من شأنها أن تُبهج وتروق؟ قلْ لي، هل من شيءٍ أفضل من أن نكون ممهورين بهذا الشّبه الإلهيّ؟ ألا نقول بأنّ الجوهر الإلهيّ هو أرفع حقيقةٍ وأسماها في تألّق مجده الّذي لا يوصف، وأنّه في الحقيقة مجموعة صوَر الفضيلة؟ من لا يُصعق بحقيقة ما قلت؟ ما الّذي يدعو يوليانُس إلى أن يسخر من حقائق لا تُردّ ولا تُضاهى؟ لماذا يهزأ بحقّ السّيطرة الشّاملة الّتي مُنِحها الحيوان المفكِّر والعاقل الأشبه باللّه من جميع ما على الأرض، أعني الإنسان؟

الطّبيعة نفسها تتّفق وما رواه موسى؛ ولكنّ يوليانُس لا تهمّه الحقائق، ويرفض بخفّةٍ هذه النّظرة إلى الأُمور، منجرفًا وراء ما يقوله أفلاطون. وهو يبدو مُعجبًا، إعجابًا لا يخلو من سخف، بخطاب تخيّله الفيلسوف، فيه أنّ اللّه العليّ يخاطب آلهةً لا تستحقّ هذا الاسم.

نقد أفلاطون

٣٥. أَرى أَنَّ الردَّ عليه في هذا الموضوع واجب أيضًا؛ فإذا كان أفلاطون قد نحا نحوًا بلاغيًّا، على خطّة الشّعراء، فجعل على لسان اللّه ما يُلائم من الأقوال، فقد أخطأ هدفَهُ، ولم يحسن مُعالجة الخطاب؛ وهو يدّعي

أنّه سمع صوت اللّه، وبذلك يخرج عن حدود الرَّصانة؛ وإنّه لمن الكفر أن يُصوَّرَ سيّدُ الكون مُشركًا الآلهة الكذَبة في مجده الخاصّ، وقد قال: «أنا الرّبّ وهذا اسمي ولا أُعطي لآخَر مجدي ولا للمنحوتات حمدي[١٦]».

هل الإنسان إله؟

هلمّ نعرض الحقيقة بوجيز الكلام مقارنةً بما ورد في أقوال أفلاطون. لا أَستغرب أن يوافقَ على أنّ القوّات الرّوحيّة العلويّة، المولودة من اللّه، قد حظيت بالاسم «اللّه» إذ إنّنا نقول بأنّ في السّماء كائنات يُطلق عليها هذا الاسم ويُقال لها «آلهة» و"أرباب»؛ وقد حظينا نحن أنفسنا بشرف هذا الاسم، عندما خاطبنا اللّه وقال: «قد قلتُ إنّكم آلهة وبنو العليّ كلّكم[١٧]». وفي هذه الحال لا بُدّ من تفسير خاصّ، فكلام اللّه قد يكون البرهان الدّامغ على عطفه؛ فعندما صنع الخليقة المفكّرة والعاقلة على صورته ومثاله، ألقى عليها، في عظيم رحمته اسم «اللّه»، وليس في الأمر غرابة لأنّه من عادتنا نحن أيضًا أن نطلق على صورة الإنسان اسم «إنسان».

٣٦. هكذا فالمخلوق المفكّر والعاقل الّذي آثره اللّه على الخليقة الّتي لا تفكّر ولا تعقل، يبدو أنّه حظي بمجدٍ أسمى وأرفع منذُ أُطلق عليه الاسم

---

(١٦) أش ٤٢: ٨.

(١٧) مز ٨٢: ٦. تفسير كيرلُّس للآية ٦ من المزمور ٨٢ (٨١) لا يتّفق والنصّ، فإنّ اللّه يهاجم فيه الأمراء والقضاة والأشرار الّذين لا يستحقّون أن يُدعَوا «أبناء العليّ» جريًا على التّقليد الّذي كان يُلقي هذا اللّقب على ذوي المراتب العالية، فبعدما وبّخهم اللّه، صاح قائلاً: «أنا قلتُ بأنّكم آلهة، أبناء اللّه العليّ، أنتم كلكم؟ كلاّ ستموتون كسائر البشر، وستسقطون كأحد الأمراء...» فالتّهديد التّالي للكلام يبدو أنّه يضمّن «أنتم آلهة» معنى تهكّميًّا.

«اللّه» وكان له هالةً من ذهب. على كلّ حال لم تنعم أيّ خليقة أُخرى بهذا الاسم. وهكذا فليس للكون ولا للسّماء حياة بالمعنى الدّقيق للّفظة، وليس لهما نفس؛ وإن لم يغامر أحد من أتباعنا ويؤيّد هذا الموقف، فلنا أيْدٌ عند تلميذ أفلاطون نفسه، أعني أرسطو؛ فقد قال ما قلناه، وأثبت أن ليس للكون نفس، ولا عقل، ولا تفكير. وإذ كان الأمر كذلك كان لزامًا على يوليانُس أمام ما تفرضه الحقيقة، أن لا يدّعي ويقول إنّ للكون - أو للكلّ أيًّا كان، على حدّ قول أفلاطون - نفسًا أو تفكيرًا، وقد عارضه في ذلك أقرب المقرّبين إليه مُعارضةً شديدة لا تقف عند حدّ.

ليس من المُحتَمل أن يكون اللّه قد كلَّف بالخَلق آلهةً لا نفس لها ولا تفكير؛ وهذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى بُرهان وإيضاح. كيف يُعقل أن يُكلِّف خالقُ الكون آلهةً أُخرى بخلق الأجناس الثّلاثة(١٨)؟ تُراهُ متردِّدًا أو عابثًا بمصير البشر؟ إنّ ذلك كلّه بعيد عن الجوهر الأسمى.

عبادة اللّه الخالق

٣٧. إذا كان الخالق صالحًا فكيف يُظهر تردُّدًا أمام أيّ مُهمّة؟ «إنّه، على حدّ قول أفلاطون، الصَّلاحُ نفسه، والكائن الصّالح لا يُضمر الشّرّ لأحد». أمّا القول بأنّ اللّه قد أظهر ازدراءً واستخفافًا فهو قول يتّهمه بالغطرسة. كيف يقبل أن يكون سيّد خلائق يرى أنّ خلقها غير لائق به؟ وكيف يتقبّل عبادة نقدّمها له إذا لم يكن قبلُ مهتمًّا بخَلْقِنا؟ أن يطلب منّا إكرام عزّته، وطاعتَهُ، وتشبُّهَنا به بالفضيلة، باستطاعتي أن أقدّم على ذلك ألف شاهد من الكتاب المقدّس؛ ولكن بما أنّ يوليانُس يثق في ما هو من قبيله فإنّي أورد له ما يقوله فرفوريوس في القسم الثّاني من كتابه

(١٨) أي النباتات والحيوانات والبشر.

«لجم الطّبيعة الحيوانيّة»: «فلنُضحِّ إذن نحن أيضًا، ولنُضحِّ كما ينبغي، للّه سيّد الكون، كما قال أحد الحكماء[١٩]، لا تقادم ماديّة، لا دخان بخور، لا تعبيرات تقديسيّة؛ فما من مادّة تخلو من نقص وفساد أمام المنزّه عن المادّة. والكلام نفسه عندما يلبس الألفاظ، لا يليق باللّه، كما لا يَليق به الكلام الدّاخليّ عندما يلطّخه فساد النّفس. لِنَعْبُدْهُ في صفاء الصّمت، وصفاء ما نصوغه فيه من أفكار. هكذا عندما نتّحد باللّه، ونتشبّه به، نقدّم له ذبيحة سيرتنا أُنشودة تمجيد له وطريقَ خلاص لنا؛ ففي الجوّ الخالي من الأهواء، وفي التّأمّل باللّه تتحقّق هذه الذّبيحة!

عناية اللّه

٣٨. اللّه يريد أن نُكرّمه وأن نسلُكَ بالقداسة وفقَ إرادته، راسمين صورة جماله في نفوسنا. ولكن قُلْ لي يا يوليانُس كيف يستطيع أن يطلب منّا هذا الموقف لو سلّمنا لخلائق أُخرى، ولو جرَّدنا من الميزة الّتي ميّزنا بها عن سائر المخلوقات؟ ما الّذي يحمله على الاهتمام والعناية بأشياء هذه الدُّنيا لو كان خلقُه لها، على حدّ ادّعاء أفلاطون، لملهاة آلهة أُخرى؟ إنّه يشمل بعنايته كلّ شيء؛ ولكي نفقه ذلك نُصغي لمن يعرف اللّه أباهُ: «أما يُباع عصفوران بفلس، ومع ذلك لا يسقط واحد منهما على الأرض بمعزل عن أبيكم الّذي في السّماوات[٢٠]». قد يتنكّر يوليانُس لهذا الكلام لأنّه يحارب اللّه بعنف، فيما يتقبّل بارتياح أقوال ومواقف من هم من قبيله، أي أقوال أمثاله من الضّالّين. كتب الإسكندر تلميذ أرسطو في بحثه عن «العناية» ما يلي: «القول بأنّ اللّه لا يعتني بأشياء هذه الدُّنيا

---

(١٩) هو أبولونيوس النّيانيّ في كتابه «الأضاحي».

(٢٠) متّى ١٠: ٢٩.

هو قولٌ مخالف لحقيقة اللّه، لأنّه من الشّرّ وفساد الطّبيعة أن يقدر أحد على صُنع الخير ولا يصنعه، واللّه منزّهٌ عن مثل هذا النّقص، وهو يستطيع أن يشمل كلّ ما على الأرض بعنايته، وهو يريد ذلك ويستطيعه، وما من شكّ في أنّه ينفّذه؟ فما من شيء، وإن زهيدًا، يستطيع الوجود بمعزل عن قرار اللّه وإرادته».

اللّه وحده هو الخالق

٣٩. يدّعي البعض أنّ أفلاطون نفسه على هذا الرّأي، ولزينون والرّواقيّين رأيٌ واضح في ذلك يؤيّده تأييدًا جليًّا؛ ونتيجة شهاداتهم أنّ الأمور البشريّة هي موضوع عناية العليّ، الإله الواحد والطّبيعيّ للكون. وقد يُقال: «ما حصيلةُ ذلك»؟ – الحصيلة أنّه كان للّه الّذي ينشر بإرادته عنايته الإلهيّة أن لا يحرم الجنس البشريّ من خيره الأجلّ، أي من أن يكون خليقته، لا أن يكون منسوبًا إلى كائناتٍ أُخرى مخلوقة ليس لها من الأُلوهة إلاّ الاسم؛ وأنّه لا يليق بالمجد الإلهيّ أن يقبل بوجود آخرين قادرين على الخلق وإخراج الأشياء من العدم إلى الوجود؛ كما أنّه من الكفر أن تُنسب صفات الطّبيعة الإلهيّة وميزاتها إلى خلائق أوجدتها هي ونقلتها إلى ما هي عليه. هذه الميزات لا تليق إلاّ بالطّبيعة الإلهيّة وحدها، وهي ترفع مجدها إلى أعلى درجات السّموّ. إنّها فوق مستوى الخليقة، ومنها القدرة على الخلق من العدم. أنّى لطبيعةٍ مولودة ومخلوقة، معرّضة للفساد، أن تعمل عمل اللّه؟

٤٠. إذا كان الخلقُ عند اللّه صورة من صوَر المعرفة، فليست المقدرة على الخلق الّتي وهبها اللّه للمخلوق أمرًا غير معقول؛ ألا يجري لنا أن نخلق أشياءَ من مادّة سابقة، بوسائل ملائمة؟ ولكن إذا كان الخَلْق على

طريقة اللّه يقتضي مقدرة مميّزة لا توجد إلاّ في طبيعة فوق طبائع البشر، وتفوق وسائل الخليقة، فلماذا يحطّ هؤلاء من ميزات الطّبيعة العليا، ويجعلونها، على هواهم، في كائنات مخلوقة وآيلة إلى الفساد؟ وإذ كانوا في نظر أنفسهم مقتنعين بتفوّقهم فإنّهم في غيّهم يذهبون إلى تحوير كلام اللّه، مُدّعين أنّ اللاّمخلوق منح الكائنات المخلوقة القدرة على تحقيق ما لا يستطيعهُ سواه.

٤١. هؤلاء الأشخاص يدّعون أن الآلهة الّذين خوَّلهم ملك الكون وربُّه أن يقوموا بالخلق ليسوا خالدين، واللّه قيَّدهم وهو يفكُّ قيدهم، ولكنّهم ينجون من الفساد ما دام قابلاً أن يبقَوا على هذه الحال. ومن الجدير بالذّكر أنّه عندما لا يكون شيء بطبيعته غير قابل التّلف، والموت، والانحلال، فكيف لا يكونون على حمق عندما يدّعون أنّ الإله العليّ قد عدلَ عن خلق ثلاثة أجناس قابلة للموت، وفضَّل أن يعهد في هذا العمل إلى آخرين؟ ونحن إذ نُهمل ثرثرات اليونانيّين نقول إنّ ما هو متنوّع ومتعدّد الأشكال في الخليقة، ما هو تارةً هكذا وطورًا هكذا، ما لا يثبت على حالٍ واحدة، نستطيع القول بأنّ الخالق صنعه، في جنسه ونوعه، لإظهار القدرة الّتي هي ميزة اللّه. قلتُ: لا يوجد شيء غير قابل الموت والانحلال؛ تلك إرادة اللّه بالنسبة إلى الخلائق؛ وهو في قراره الثّابت يسير في تصميمه حتّى عالم الإنسان. إنّه يعمل من ذاته في استقلال تامّ، وليس ذلك عن علم مُكتسب، بل عن طبيعة إلهيّة مميّزة، وعن ميزات أُخرى لا يملكها سواه. إنّه لعملٌ قبيح أن ننسب القدرةَ على الخلق إلى غير اللّه، وهذا ما يستطيع أساتذة يوليانُس أن يبيّنوه لنا.

شهادة هرمس تريسمايسْتُس

٤٢. هوذا ما كتبه أسكليبيوس المعروف باسم هرمس تريسمايسْتُس مُتحدِّثًا عن طبيعة «الكلّ»: «إذا كان هنالك في الحقيقة كائنان، أحدهما خالق والآخر مخلوق، فالوحدة توحّد الاثنين السّابق واللاّحق؛ أمّا السَّابق فهو الله الخالق، وأمّا اللاّحق فهو الكائن الّذي يولد، أيًّا كان. ولا تذهب، بسبب تنوّع المخلوقات، إلى الوقوف موقف الحذَر والخشيَة من أن تنسب إلى الله التّواضع والتّواري. إنّ مجد الله غير القابل التّقسيم هو في خلق كلّ شيء، والقدرة الخالقة هي بمثابة جسم الله. ليس في ذات الكائن الخالق شيء يُعدُّ سيِّئًا أو حقيرًا، لأنّ مثل هذه النّقائص من شأن الخلائق، فهو كالصَّدأ على البرونز والقذارة على الجسم؛ فالصّدأ ليس من صُنع السبّاك، والقذارة ليست من صُنع الوالدين». وفي ما بعد يتكلَّم هرمس بحرارة أشدّ، مقدّمًا مثالاً واضحًا ويقول: «هكذا أيكون في إمكان الرَّسّام الواحد أن يُمثّل السّماء، والأرض، والبحر، والآلهة، والبشر، وشتّى الكائنات غير العاقلة، ويكون الله غير قادر على أن يخلق جميع الكائنات؟ يا للَحماقة، ويا لَلجهل في ما يتعلّق بالله! مَن يفكّرون هذا التّفكير هم فريسة أقبح الشّرور: يدّعون أنّهم يكرمون الله ويمدحونه، ولكنّ إنكارهم أنّه خالق كلّ شيء يعني أنّهم لا يعرفونه. وإذ لم يكتفوا بجهله راحوا يرتكبون في حقّه أَشنع الكفر متَّهمينه بالكبرياء أو بالعجز. وبالفعل إذا لم يخلق اللّه كلّ شيء كان ذلك عن كبرياء أو عن عجز، والقول بذلك كفر. ليس في اللّه إلاّ ميل واحد هو الصّلاح؛ والكائن الصّالح لا يكون متكبّرًا ولا عاجزًا. واللّه هو هذا الصّلاح، هذه القدرة الكلّيّة على خلق كلّ شيء: ما يوجد يوجد بفضل هذا الكائن الصّالح والقادر على خلق كلّ شيء.

وإذا كنتَ تريد أن تعرف كيف يخلق، وكيف يولد ما يُولد فما عليك إلاّ أن تلقي نظرك على أجمل صورة وأقربها إلى الحقيقة، صورة الحارث الّذي يلقي على الأرض، هنا بُرًّا، وهنا شعيرًا، وهناك بذارًا آخر؛ وانظر إليه يغرس كرمةً، أو تُفّاحةً، أو أشجارًا أُخرى. هكذا يغرس اللّه اللاّزوال في السّماء، والتّغيُّر على الأرض، وفي العالم كلّه الحياة والحركة».

٤٣. هكذا فكّر حكماء اليونان الأقدمون، ذوو الشّهرة والأثر، وما عملوه لحمل الآخرين على التّفكير. وأمّا يوليانُس فقد اعتزل الجماعة باحتقار ورمى بآراء الجميع، لا يُقنعه إلاّ كلام أفلاطون. فهو يحاول أن يقدّم تفسيرًا واضحًا للخطاب الّذي يذكّرنا فيه أفلاطون أنّه يجعل اللّه يتكلّم. وإليك قولَه:

يوليانُس

هرميّة الآلهة عند أفلاطون في رأي يوليانُس

ألا يكون هذا كلُّه حُلمًا؟ فكِّر فيه فتعرفه. أفلاطون يدعو «آلهة» هذه الأشياءَ المرئيّةَ أي الشّمس، والقمر، ومجموعات الكواكب، والسّماء، ولكنّها ليست سوى صور للحقائق غير المرئيّة، فالشّمس الّتي تراها عُيوننا هي صورة الشّمس المعقولة الّتي لا تُرى؛ وكذلك القمر الّذي تراه عُيوننا، وكلّ مجموعة من مجموعات الكواكب هي صورة للقمر وللكواكب المعقولة. أفلاطون يعلم إذن أنّ هذه الآلهة غير المرئيّة توجد في ومع اللّه الّذي ولدها، وهي تصدر عنه. للّه إذن أسباب تحمله على أن يقول «آلهة الآلهة» متوجّهًا أوّلاً إلى الآلهة غير المرئيّة، ثمّ إلى الآلهة المرئيّة. الخالق العامّ للنوعين هو الكينونة الّتي صنعت السّماء، والأرض، والبحر، والكواكب، بولادة مُثُلها في عالم الأشياء المعقولة. تأمّل في ما يلي فهو

ينطبق تمامًا أيضًا: «يقول إله أفلاطون إنّه ينقص ثلاثة أجناس قابلة للموت» – أي جنس البشر، وجنس الحيوانات، وجنس النّباتات، وكلّ منها تحكمه أنظمة خاصّة. وهو يضيف: «فإذا كان كلّ واحد منها يولد بتدخّل منّي فهو يكون بالضّرورة غير قابل الموت». ولئن كان الآلهة بالفعل غير قابلين الموت، كالعالم المرئيّ، فما ذلك إلاّ لأنّهم من صُنع الخالق.

٤٤. لماذا يقول اللّه: «كلّ ما هو غير قابل الموت تلقّى بالضّرورة من الخالق السّماح بالكينونة» (المُراد هنا هو النّفس العاقلة)، وكذلك: «في شأن هذه العناصر غير المائتة، سأبذر، بموافقتك، المبادئ الأولى وأجعلها تحت تصرّفك. وفي ما تبقّى آحبُكْ أنتَ بنفسك المائت مع غير المائت»؟ إنّه من غير الخفيّ أنّ الآلهة نالوا من أبيهم قدرتهم الإلهيّة، وولدوا على الأرض الكائنات القابلة الموت؛ فلو كانت السّماء لا تختلف في شيء عن الإنسان ولا عن الحيوانات نفسها ولا عن الأسماك الّتي تسبح في البحر لوجب أن يكون خالق كلّ شيء واحدًا ووحيدًا؛ ولكن إذا صحّ أنّ الفرق شاسع ما بين الكائنات غير قابلة الموت والكائنات القابلة الموت، وأن لا إضافة تُطيل ولا اقتطاع يُنقِص في ما هو مائت وزائل، فيجب القبول بأنّ بعض الكائنات هي السّبب الأوّل لهذه، وبعضها هي السّبب الأوّل لتلك.

كيرلُّس

تفنيد لهذا التّفسير

يتخبّط يوليانُس في هذه الأُمور على غير هدى، ويخلط ما بين أُمور غير متجانسة، وهذا ما يتّضح بسهولة لكلّ ذي بصيرة. يبدأ القول بأنّ الآلهة المرئيّة هي صورٌ للآلهة غير المرئيّة – إشارة إلى ما كان يحلو لأفلاطون

أن يدعوه «العالم المعقول» و«العالم المحسوس»، مطلقًا على الأُمور المرئيّة «مادّة الرّأي عن طريق الحواسّ». يبدو أنّ صاحبنا يوليانُس يريد التّعبير عن «الصُّور» الّتي يقول أفلاطون أحيانًا بأنّها جواهر ذات وجود ذاتيّ، ويحدّدها أحيانًا أُخرى بأنها أفكار اللّه.

المخلوق لا يمكن أن يوجد مع اللاّمخلوق

٤٥. ومهما يكن من أمر فإنّ الأخصّائيّين في المادّة يقولون بأنّ تلامذة أفلاطون أنفسهم يعدّون نظريّته غير مقبولة. أرسطو يصيح ويقول: «يا لَتلك الصُّور! إنّها من هذَر القول؛ ولو وُجدت لما كان لها أيّ أهمّيّة». فلماذا يطيب ليوليانُس أن يؤيّد النّظريّة ويحاول أن يقدّمها مذهبًا غير قابل النّقد مع أنّ أساتذته يعدّونه مذهبًا غير ثابت؟

وإنّنا سنجد، في تصريح له آخَر، علاماتِ مرضِ الجهل العضال الّذي يُعانيه. لقد كتب: «يعلم أفلاطون أنّ الآلهة المعقولة وغير المرئيّة توجد مع وفي اللّه الّذي ولدها وصَدرت عنه». ثمّ يضيف أنّ إله الكون، الّذي صنع السّماء والأرض هو اللّه خالق الأشياء المرئيّة والأشياء المعقولة. يتّضح من ذلك أنّ اللّه غير المخلوق هو مصدر هذه وتلك، فكيف يستطيع القول بأنّ هذه الآلهة هي صادرة عنه وموجودة فيه ومعه؟ كيف يا يوليانُس، قُلْ لي، كيف يتواجد المخلوق مع اللّه غير المخلوق؟ كيف يكونُ فيه؟ أمّا نحن فنقول بأنّ كلمة اللّه، بكونه غير مخلوق، يتواجد بالضّرورة مع من ولده، ويوجد فيه، ويصدر عنه بالولادة. لا شكّ في أنّ المُدافع الدّقيق عن الدّقائق الأفلاطونيّة يُظهر اللّه الأعلى غير مخلوق؛ ولكنّه يُثبت أنّ الكائنات المولودة منه والصّادرة عنه موجودة فيه، وهكذا يشوّش الأُمور ويضيع في متاهات مُغلقة، ولا يترك مجالاً للوضوح الّذي يقود إلى رؤية اللّه.

٤٦. يمكننا أن نتوجّه إليه بالكلام المأثور الّذي يروق لكثيرين أن يردّدوه وهو «لا نخلط مِيسِيَا بفريجيَا[٢١]». دع هذا الهذر السّخيف، أيّها الرَّجل! فإنّك تتحدَّث عن اللّه الأسمى من كلّ شيء، ونراك تتصوّر تصوّراتٍ سخيفة في شأن مجده.

لِنُواصِلْ: بعدما أظهر يوليانُس اللّه على أنّه خالقُ كلّ شيء، قائمًا وحده بأجزاء الخليقة الرَّائعة والعجيبةِ، راح يدّعي أنّ اللّه، بسابق علمه للعمل الأقلّ أهمّيّة من جميع الأعمال، استعان بآلهة أُخرى، وأنّ هذه الآلهة قالت للّه العليّ: «دعنا نشترك في عملك، واعهد إلينا في الاهتمام بالأجناس الثّلاثة القابلة الموت والّتي خلا منها الكون! أعطِ النّفس ونحن نضمّ إليها الجسد، جامعين ما بين المائت وغير المائت».

وقد يحاول يوليانُس أن يُدافع عن قناعاته بقوله إنّ طبيعة الأجسام الأرضيّة قائمة على تجمُّع العناصر، وهو في ذلك يسير على خُطى معلّميه، فأمبيذقليس بن ميتون يرى هذا الرّأي، فيقول بأنّ المبادئ الأَوّليّة للعالم هي النّار، والهواء، والماء، والتّراب، ويُضيف إليها التّجاذب والتّنافر. أفلوطين يذكرها في بحثه «الجواهر الثّلاثة الأَوّليّة» ويقول: «في رأي أمبيذقليس أنّ التّنافر يُجزّئ والتّجاذب يُوحّد؛ وفي نظره أنّ هنالك ظاهرات غير جسمانيّة فيما أنّ العناصر تؤلّف نوعًا من مادّة».

العليّ هو وحده صانع كلّ شيء

٤٧. يكون من ذلك أنّه وإن كان لتجمُّع العناصر أثر في الأجسام الأرضيّة فإنّنا لن نقبل بالأمر إلاّ بعد نظر. فعلينا أن نسعى لمعرفة من قام

(٢١) هذا المثل السّائر يقوم على أسطورة الدّورة القبرصيّة الّتي تروي أنّ اليونانيّين في سيرهم إلى طروادة انتقلوا سهوًا من فريجيا إلى ميسيا.

بهذا التَّجميع، مَن جمع في قلب هذه الوحدة عناصر متنافرة في طبيعتها، من ألّفها حتّى تصبح خصائص بعضها منُسجمة مع خصائص البعض الآخر، وحتّى تتعاون معًا، إن صحّ القول، لإيجاد وولادة أيّ شيء من الأشياء. أليس اللّه الصّانع العجيب للكون، هو الّذي يوفّر للأجسام الأرضيّة هذا الكسب الإضافيّ، حتّى تُفيد من العناصر من غير أن تُحرم مساعدةَ أيٍّ منها؟ وآلهة الأجناس الثّلاثة ليست مختلفة عن اللّه؛ واللّه العليّ هو الواحد، والمبدأ الشّامل الصّانع الوحيد لكلّ شيء، الّذي ليس فوقه شيء؛ كلّ شيء خاضع له، صادر عنه، ودونه مقامًا، لأنّه مخلوق. كُتب اليونانيّين أنفسهم تتحدّث عن استحسان اللّه لعمله، وإنّا على هذا الرّأي لأنّ الكتاب المقدّس يشهد بذلك عندما تقول الحكمة: «كنتُ عنده مهندسًا وكنتُ في نعيم يومًا فيومًا ألعبُ أمامه في كلّ حين، ألعب في مسكونةِ أرضه ونعيمي مع بني البشر[٢٢]». أليس من الأفضل أن نراه يُسَرّ بخلائقه لا بخلائق آلهة أُخرى؟

٤٨. ولكنّ أفلاطون يُشير إلى أنّ اللّه وقع في تردُّد، أو، كما قلتُ آنفًا، رفض للبشر الحصّة الفضلى بدافع الحسد؛ وليس في الأمر غرابة، إذ إن أفلاطون يجعل الخير فوق اللّه الخالق، ذلك الخير الّذي يجعله غير قابل التّغيّر، راسخًا، بعيدًا عن الحاجة إلى خلق أيٍّ من الأشياء المؤهّلة للوجود، ذلك الخير الّذي قاربَ التّردُّد أمام فكرة إيلاء القدرة الخلاّقة لإلهٍ آخر صادر عنه وآتٍ منه.

الهرميّة داخل الخليقة

ولكنّ أفلاطون يجعل إلى جانب هذا الإله آلهةً أُخرى لديها القدرة

---

(٢٢) أم ٨: ٣٠ – ٣١.

نفسها على الخلق، وذلك لكي يبعد عنه كلّ ظاهرة من ظواهر التّفوّق. ويوليانُس يحسب أنّه قدَّم دليلاً رصينًا ودقيقًا عندما قال: إذا تصوّرنا اللّه واحدًا ووحيدًا في خلق العالم، فالسّماء لا تختلف عن الإنسان في أيّ شيء، ولا عن الحيوانات الدّابة على الأرض والسّابحة في البحر. كم كان من الضّروريّ إذن أن يُصار إلى إله يتلاءَم وطاقات كلٍّ من الخلائق. فلنُجبْ على هذا القول أيضًا.

الجواب

ما الّذي يُناقض أو يخالف العقل السّليم في قول أنّ الكون صادر عن إله واحد؟ القدرة الّتي كانت كافية لخلق أشياء هكذا عظيمة تُراها عاجزة أمام أشياء أقلّ أهمّيّة؟ وهكذا فالرِّفعة والتّفوُّق عند الخلائق الفريدة والمتميّزة هما من عمل اللّه الخاصّ في الخلق.

ليس هنالك آلهة من مستوًى أدنى

٤٩. أليس في ذلك اقترافٌ شنيع لعمل الحرمان، وميل من اللّه إلى ازدراء ما تبقّى من الخليقة الأرضيّة؟ ولكن ليس ذلك سوى تفاهات وثمرة حماقة كما أشرنا إلى ذلك. وليقُمْ يوليانُس بالتّفسير والإيضاح. إنّه يدّعي أنّ الآلهة المخلوقين صنعوا الأجناس الثّلاثة النّاقصة؛ ولكن ألا نرى فيها بوضوح – باستثناء الجنس البشريّ – تنوّعًا شديدًا في الأنواع والأجناس، والتّركيب الطّبيعيّ؟ نستطيع القول بأنّ الخلق فيها يجري من الأرفع إلى الأوضع، ولا نخرج عن الحقيقة إذا قلنا القول نفسه بالنسبة إلى عالم النّبات؛ ألا يقتضي هذا إلهًا لكلّ خليقة، وفاقًا لأهميّتها، وذلك تجنُّبًا لما يلحق العِلية من المهانة إذا كان خالقها خالق السِّفلة؟ يكون من ذلك أنّ خالق البشر يجب أن يُجعل على حدة – وذلك أمرٌ طبيعيّ

– أمّا سائر الكائنات فلا بُدّ من خالق لكلّ مخلوقٍ منها وإن كان أحقرها. قلْ لي يا يوليانُس، أليس ذلك مهزلة حقيقيّة وشعوذة مُخزية تحوّلان العقل من طلب الحقيقة إلى اللاّمعقول؟ هل في الأمر أيُّ شكّ؟

ولكنّ خصمنا يبدو، في ما بين معلّميه، ميّالاً إلى الآراء الغريبة، فيذهب إلى أنّ السّماء هي الله، ويقول:

يوليانُس

السّماء هي اللّه

٥٠. هل أنا بحاجة هنا إلى شهادة اليونانيّين والعبرانيّين؟ أيّ إنسان لا يرفع يديه إلى السَّماء إذا صلّى، أو أقسم باللّه أو بالآلهة، ومن لا يتوجّه إلى هذا المكان إذا فكّر في الأُلوهة؟ ولم يكن هذا الميلُ عند النّاس لغير علّة: إنّهم لمّا شاهدوا السّماء لا يعرو أقسامها نقصان ولا زيادة، ولا تغيُّر ولا اضطراب، وشاهدوا النّظام في حركاتها، والتّوازن في نظامها، والثّبات في نظام القمر، وفي شروق الشّمس وغروبها، في مراحل ثابتة أيضًا، كانوا على حقّ عندما جعلوا فيها اللّه وعرشهُ. هذه المجموعة الّتي لا تعروها زيادة ولا نقصان، ولا ينالها تغيُّر فسادٍ أو إضافة، هي في منجاة من الموت والولادة. وبما أنّ هذه السّماء غير معرّضة بطبيعتها للموت والانحلال، فهي سليمة من كلّ فساد؟ وبما أنّها أزليّة وغير قابلة التّغيّر – ونحن نرى ذلك بوضوح – فإمّا أن يكون في داخلها نفس عُليا وإلهيّة تحرّكها حركة دائريّة حول الإله الأكبر، وإمّا أن تنال حركتها من اللّه (كما تنال أجسادُنا الحركة من النّفس الّتي فيها)، وتمضي في مدارها غير المتناهي باندفاع لا يهدأ ولا ينتهي.

كيرلُّس

٥١. هذه الأقوال تصدر عن إنسان ضالّ اللّبّ، وخالٍ من القوى العقليّة الّتي تقود إلى الحقيقة - والأمر واضح. ألم يجد برهانًا على أُلوهة السَّماء إلاّ في كون النّاس المصلّين يرفعون أيديهم وعيونهم إلى فوق؟ فلو عرض لإنسان أن يتأمّل في الغيوم، ويرفع نحوها هذا العضو الطّبيعيّ الّذي نسمّيه العين، هل يكفي ذلك للقول بأنّ هذا الإنسان يعترف بأُلوهة الغيوم؟ كيف لا يتعرّض للهزء مَن تجرّه هذه السّخافات إلى الضّلال؟

عندما يسمعُ الإنسان يُعجب بهذه السَّماء ذات الملامح الطّبيعيّة، والّتي يرى فيها «اللّه» أو «عرش اللّه». فليأتِ ويُعْلمنا هل هذان الأمران هما أمر واحد، وحقيقة واحدة! لا أظنّه وصل إلى هذه الدّرجة من الضّياع فلا يرى فرقًا بين «اللّه» و«عرش اللّه». إنّنا عندما نتصوّر الأُمور الإلهيّة لا يكون تصوُّرنا لها كإدراكنا للأُمور الحسّيّة والأجسام المادّيّة، وذلك ما لا يشكّ فيه أحد؛ فإذا ذكرنا «عرش اللّه» دلّ تعبيرنا على مملكته كما يجري ذلك في عادة البشر عندما يُقال «عرش فلان مزدهر» بمعنى «سلطانه» و«مُلْكه».

اللّه فوق الكواكب

٥٢. ثمّ كيف المساواة بين صاحب السّلطة وخادمها، بين ضعة الرّعيّة وسلطة الحاكم، بين الخاضع والآمر، بين الأقدر والأضعف؟ فإلى أيّ مداورة لجأ حتّى يقول بأنّ السّماء هي اللّه أو عرش اللّه؟

يقول يوليانُس: «ولكن السَّماء تتحرّك في انتظام وانسجام وتوازن،

والشّمس والقمر يوزّعان نورهما طبيعيًّا على وتيرة ثابتة، وشروق الكواكب وأفولها ودورانها ومسيرتها، وحركاتها هي هي في المكان والزّمان». ولكن كيف نقابل حكمة بولس السّامية الّذي يرى في هذه الظّاهرات برهانًا على أنّ هنالك سيّدًا يُشرف على النّظام الكونيّ، إلهًا يُحدّد لكلّ خليقة طريقة وجودها المُلائمة، ويُقدّم شاهدًا على أنّ ما صنعَهُ، في تنوّعه وعظمته، يسير على نظامٍ رائع؛ وقد كتب بولس: «إنّ صفات اللّه غير المنظورة، ولا سيّما قدرته الأزليّة وأُلوهته، تُبصَرُ منذ خلق العالم، مُدركَةً بمبروءَاته[٢٣]».

وعلى كلّ حال فمُعلّمو يوليانُس أنفسهم يروقهم هم أيضًا أن يفكّروا التّفكير نفسه، وأن يكتبوا في هذا الموضوع. فلوطرخس، كما أشرنا آنفًا، يعبّر عن ذلك بقوله: «هكذا استخلصوا فكرة اللّه: الشّمس والقمر وسائر الكواكب تتبع مسارًا تحت الأرض ثمّ تظهر بألوان لا تتغيّر، وأحجام متماثلة، في أماكن لا تتغيّر».

السَّماء مخلوقة

٥٣. وهكذا فالأقدمون الّذين وضعوا العقائد الّتي يعتنقها يوليانُس، لم يتوصّلوا إلى صورة واضحة للسَّماء، عند تأمّلهم مسار الشّمس، والنّظام والتّوازن في سائر الخليقة الّتي تتحرّك حركة خالية من كلّ خلل. ولكنّهم استخلصوا من ذلك كلّه قدرة مَن هو السيّد، وسيادته المجيدة والمطلقة. ولكنّ يوليانُس مضى يشوّه المجد الّذي يتعلّق بهذه الحالة عندما كتب: «السَّماء لا تسمح بشيء غير منتظم، وتلتزم بذاتها نظامًا لا اضطرابَ

---

(٢٣) رو ١: ٢٠.

فيه». ولكن من وضع لها هذا النظام وهذه الحركة المنتظمة؟ مَن حدّد للقمر الفترة المُلائمة لكلٍّ من أطواره النّورانيّة؟ مَن حدّد مسيرة الشّمس؟ أليس منظّم الكون وحده، كما سبق لي القول؟ لماذا تذهب يا يوليانُس إلى تحويل مواقف المعجبين بهذه المشاهد، وتدعوهم، لا إلى تمجيد اللّه، بل إلى التّطلُّع إلى السَّماء على أنها اللّه، على أنّها «غير قابلة التّغيُّر، والزّيادة، وكلّ نوع من أنواع التّحوّل، وأنّها على منجاة من الموت ومن الولادة، لأنّ طبيعتها غير قابلة الموت والانحلال»؟ كيف تدّعي أنّ السَّماء المخلوقة هي غير قابلة التّحوُّل والتّغيُّر؟ إنّها خُلقت وبهذا تحرّكت من العدم إلى الوجود؛ فإذا كان الموجود صادرًا من اللاّموجود فذلك دليل على التّغيُّر والتّحوُّل، وكيف يكون المولود غير قابل الزّوال والفساد؟

٥٤. كيف القول بطبيعة غير مائتة في ما هو خاضع للولادة والموت؟ كيف يكون أزليًّا ما خُلِق في زمن؟ وأفلاطون يقول بوضوح «إنّ الزّمن وُلد يوم وُلدت السَّماء، وإنّهما لَيزولان معًا إذا كانا في حكم الزّوال». فكيف يكون المعرَّضُ للتّلَف بطبيعته غير قابل الموت؟ كيف يكون غير قابل التّلَف الكائنُ الّذي تقبّل من إرادة اللّه موهبة عدم الزّوال؟ ففي مثل هذه الكائنات ليست الطّبيعة هي غير القابلة للتّغيُّر، وليس التّرسُّخ الّذي يملكه كلّ واحد في ذات طبيعته ميزةً جوهريّةً، فالبقاء على هذه الحالة إنّما هو منوط بإرادة السّيّد وتقريره.

ويوليانُس إلى ذلك يزعم «أنّ هنالك نفسًا سامية وإلهيّة تسكن في السَّماء وتحرّكها حركةً دائريّة حول الإله الأكبر، أو أنّ اللّه نفسه يحرّكها كما تحرّك النّفس أجسادنا». ولكن، يا هذا، إذا كنتَ تدّعي أنّ هذه السَّماء غير مخلوقة، غير زائلة، غير قابلة التّدمير، غير قابلة التّقلّب والتّغيُّر، وأنّها بريئة من كلّ فساد، وتدّعي أنّها أزليّة، فما هي النّفس

العُليا والإلهيّة الّتي تحكمها وتُهيمن عليها؟ أليس اللّه الّذي خلقها هو المبدأ والقدرة الخلاّقة؟ وطبيعة اللّه الّتي لا توصف حافلة بالمجد الأسمى؛ ولئن قلنا إنّها غير قابلة الزّوال والانحلال، والتّغيُّر، والزّيادة، وإنّها غير مخلوقة وأزليّة، وخالية من كلّ فساد، وجامعة لكلّ كمال، وبعيدة عن كلّ حاجة، فماذا أبقيتَ له، أنتَ الّذي تمهر المخلوقات بميزات هكذا عظيمة؟

السَّماء عرش اللّه

٥٥. يجيب يوليانُس «أنّ العبرانيّين، في نظرتهم إلى السَّماء يتصوّرونها عرش اللّه، ويجعلون من الأرض موطئًا لقدميه». هذا أمر صحيح وإنّي أورد لك كلمة اللّه على لسان أحد الأنبياء القدّيسين: «السّماء عرشي والأرض موطئ قدميّ فأيّ بيتٍ تبنون لي، يقول الرّبّ، وأيّ مكان يكون مقرّ راحتي».[٢٤]؟ ولكنّه لا يقول إنّ السَّماء هي اللّه، إنّه يشبّهها بعرش ويشبّه الأرض بكرسيّ؛ وليس في الأمر شيء غريب، فموسى الحكيم أقام في أورشليم الهيكل المعروف، وكانت الأسباط اليهوديّة تنظر إلى هذا الهيكل باغتباط وتتصوّر أنّ اللّه العليّ كان يقيم فيه: كان اليهود بطيئي الإدراك وقليلي الاطّلاع على ما يُقال عن اللّه؛ كانوا يعتقدون أنّ أورشليم مدينة اللّه، وأنّ اللّه لا يسكن إلاّ فيها، وذلك بسبب النّشيد الّذي أنشده داود حين قال: «يُحدَّث عنك بالمفاخر يا مدينة اللّه[٢٥]». وإذ كانوا ضعيفي الرُّؤية أنبهم اللّه قائلاً: «أيّ مسكن تستطيعون أن تبنوا لي، أنا الّذي السَّماء عرش لي والأرض موطئ لقدميّ؟» فكان لا بُدّ من تثقيف شعب يحصر وجود اللّه في مكانٍ ما، وإطلاعه بطريقة واضحة

(٢٤) أش ٦٦: ١. (٢٥) مز ٨٦: ٣.

على أن اللّه في كلّ مكان، وأن لا شيء يحويه، وأنّه هو الّذي يخترق كلّ مكان، وأنّه يملأ السَّماء والأرض.

شهادة الكتاب

٥٦. أن تكون السَّماء مخلوقةً أَمرٌ يسهل بيانُه بما لدينا من شهادات الكتاب المقدّس. قال اللّه في مكانٍ ما: «أنا صنعتُ الأرض وخلقتُ البشر عليها: يداي نشرَتا السَّماوات وأنا أمَرتُ جميع جُندها[٢٦]». وأعلن الطّوباويّ داود قائلاً: «بكلمة الرّبّ صُنعت السّماوات وبروحِ فيه كلُّ جنودها[٢٧]». إنّه يَعلم أنّ السَّماوات تُذيع مجدَ اللّه[٢٨]. كيف ذلك؟ إنّها تدعو إلى الإعجاب أكثر من أيّ شيءٍ آخر، في ذاتها وفي مصدرها، وإذا جاز القول، بصوتها، إذ إنّ أجمل الآثار الفنّيّة، وإن لم تَهَبْ صوتاً، تُذيع براعة الفنّان وتُعبّر عنها بذاتها.

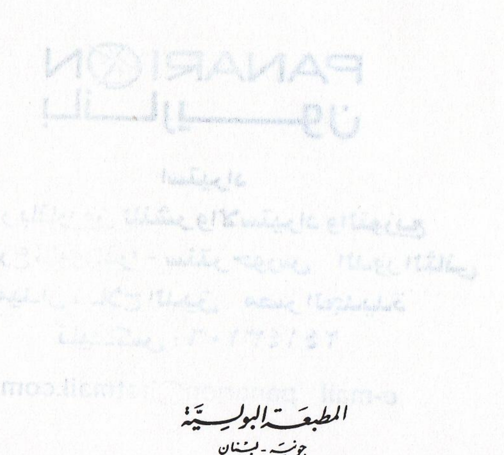
(٢٦) أش ٤٥: ١٢.

(٢٧) مز ٣٣: ٦.

(٢٨) مز ١٩: ٢.

فهرس

صفحة



المطبعة البولسية
جونية - لبنان



منشورات اليوبيل المئويّ الأوّل
لتأسيس الجمعيّة البولسيّة

